عقيدة
السَّـــلام



وحيد الدين خان

نقله إلى العربية
بسام عثمان أحمد أبو زيد

العبيكان
Obeikan



Original Title
The Ideology of Peace

Author:
Maulana Wahiduddin Khan

ISBN-13: 978-81-7898-129-7

Published by GOODWORD BOOKS, Al-Risala, 1 Nizamuddin West Market, New Delhi- India

ح شركة العبيكان للتعليم، 1434هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

خان، وحيد الدين

عقيدة السلام. /وحيد الدين خان؛

بسام عثمان أحمد أبو زيد - الرياض 1434هـ

136 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 5 - 525 - 503 - 603 - 978

1 - الإسلام -مبادئ عامة　　2 - الأخلاق الإسلامية

أ. أبو زيد، بسام (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي: 211　　رقم الإيداع: 4787 / 1434

الطبعة العربية الأولى 1437هـ - 2016م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

عقيدة السّلام

وحيد الدين خان

نقله إلى العربية
بسام عثمان أحمد أبو زيد



قائمة المحتويات

مقدّمة

إنّ السّلام ليس مجرّد موضوع أكاديميّ في نظري؛ إنه هدف وجوديّ، ولطالما حلمت بالسّلام بقدر ما أتذكّر. أستطيع القول بكل صدق: إنني ولدت مسالمًا، وأحيا حياة محبّة للسلام، حياة طالما كانت مصدرًا للعزاء الروحيّ عندي. وباختصار، فإنّ مهمّة حياتي قد تُسمى مهمّة سلام.

وبطبيعتي، فقد كنت دائمًا نباتيًّا. إن القتل والعنف أمران كريهان في طبيعتي الفطريّة، إنني أشعر بأنّ مثل هذه الأفعال قد لا تكون متوافقة معَ جيناتي الوراثية. ولربّما ولدت بمثل هذه الطبيعة التي تجعلني حسّاسًا جدًّا تجاه هذه المسألة؛ لكي ألاحظ أهميّتها، وأمارس دوري كاملًا في مهمّة السّلام هذه.

لقد عرفني الجميع طيلة حياتي شخصًا مسالمًا، محبًّا للسلام. وفعلًا، فإنّ أيّ حدث عنف كان يؤثر فيّ لدرجة تجعلني أبكي، سواء حدث ذلك العنف في وطني أم في خارجه، وسواء كان الضحايا معروفين أم غير معروفين لدي.

لقد صادفت كثيرًا من مثل هذه الحوادث في حياتي. وسأسرد إحداها لتوضيح وجهة نظري.

في أحد الأيّام، عندما كنت شابًّا، أراد أخي الأكبر وأصدقاؤه الخروج في رحلة صيد، وقد أصرّ أن أذهب معهم حينئذ، بحيث لم يترك لي خيارًا آخرَ. آنذاك انطلقنا في سيارتين، وبعد مضيّ قُرابة الساعتين، مررنا بأطراف المدينة وحقولها وبساتينها، عندئذٍ ابتدأ أخي بصيد الطيور الموجودة في

أعالي الأشجار، ثمّ إنّ أخي وأصدقاءه أعطوني بندقيّة، وطلبوا إليّ أن أصوّب على طائر جالس على قمّة شجرة، وقد فعلت مـا طلبوا؛ حيث ثبّتّ البندقيّة بكتفي، وصوّبت على الطائـر. ولكن، وحين أصبح الطائـر في مدى رمايتي تمامًا، انتابني شعور غريب بعدم الراحة، بحيث لم أتمكّن من الضغط على الزّناد، فعمـدت إلى تسليم البندقيّـة إلى أخي. بعد ذلـك، شعرت بثقل في صدري؛ فاستأذنت أخي وأبناء عمومتي في المشي قليلًا، وما إن ابتعدت عنهم مسافة لا تسمح لهم برؤيتي، حتى ركبت حافلة وعدت إلى المنزل في (الله أباد). إنني مسالم، لكنّ سلميّتي ليست ذات طبيعة استراتيجيّة، وهي ليست صيغة لتبرير الدعم في حالة والمعارضة في حالة أخرى.

إنّ سِلْمِيَّتي تمتدّ إلى البشريّة كافة؛ حيث إنّ لها قيمة إيجابيّة بكلّ ما تعنيه الكلمة. إنها جيّدة بالمطلق، وهي تبني عندي قاعدة الخير كله؛ فهي ليست نظريّة مجرّدة، بل إنها جزء من لحمي ودمـي، وهي ألم قلبي. ومن ثَمّ فهي حياتي وصوت روحي. لقد رويت نبتة السّلام بدموعي، وعشت حياتي كاملة لأجل قضيّة السّلام، وأريد أخيرًا أن أموت لأجل هذه القضيّة.

لقد ابتدأت المرحلة العامة لمهمّتي للسلام في الثامن والعشرين من شباط 1955م، عندما انعقد اجتماع عامّ في مدينـة لكناو التاريخيّة؛ إذ ألقيت في ذلك الاجتماع خطابًا ابتدأ بالكلمات الآتية: (إننا نقف على عتبة عهد جديد؛ عهد سيُسمّيهِ المؤرّخون مستقبلًا العهد الذرّي، ولكن قد لا ينجو أيّ من أولئك المؤرّخين ليروي حكاية دمار البشريّة). لقد نُشر هذا الخطاب عام 1955م على صورة كتيّب بعنوان: على عتبة عهد جديد.

وبعد الحرب العالميّة الثانية، غطت الكآبة نصف القرن اللاحق خوفًا من خطر الحرب الذريّة. ومعَ هذا، فإننا ننعم بطمأنينة كبيرة؛ كوننا دخلنا عتبات القرن الواحد والعشرين، والأمـل يملؤنا بتفادي خطر الحـرب الذريّة، وأنّ عهدًا جديدًا للسلام قد ابتدأ فـي أرجاء العالم كلّه. إنّ هـذا الكتاب هديّة للجيل الجديد من رجل محبّ للسـلام، يحاول فيه أن يعرض عقيدة حياة كاملة تستند إلى السّلام، يمكن تلخيصها في هذه الكلمات: إنّ السّلام ليس خيارًا؛ إنه قدرنا. فإمّـا أن نعيش في سلام أو ندمـر أنفسنا بتركه. وممّا لا يمكن إنكاره في هـذا العالـم أنّ المستقبل للسلام فقط، ولـن يكون هناك مستقبل للحرب والعنف.

وحيد الدين خان

نيودلهي

19 تموز 2002م

الفصل الأول: عقيدة السّلام

على الرّغم منْ أنّ التّاريخ يحفلُ بدعاةِ السّلام، فإنّ منَ الصّعب أنْ نَجِد بين طيّاته مُفكّرًا أو داعية كانتْ لديه القدرةُ على إبراز مفهوم السّلام فِكرًا وعقيدةً كاملةً متكاملةً. ولعلّ هذا على مرّ العُصورِ، كانَ السّببَ الحقيقيّ وراءَ عدم تقديم المفهوم الدّقيقِ للكلمةِ والمبنيّ علـى أسسِ السّلام. ومع وجودِ عددٍ لا بأسَ به منْ محبي السّلام، فإنّ تأسيس مجتمعٍ مسالم على نطاقٍ واسع لم يصبح قطّ حقيقةً ملموسةً. ولعلّ حقيقة أنّ مصالح الإنسان تترافق دائمًا معَ وجود السّلام، هي سبب رغبة كلّ فردٍ في المجتمع في الحصول على بيئة مسالمة وحياة آمنة تحقيقًا لمصالحه الشخصيّة.

لكنه يواجه، وعلى نحو متكرّر، مثـل هذه الحالات المتنوّعة، بحيث يحتاج إلى عقيدة للسلام ليهتدي بها. أمّا أنّ السّلام حاجة بشريّة، فإنّ هذا لا يجعله كافيًا ليمارس سياسة ضبط النفس، وأن يبقى مسالمًا في الحالات جميعها؛ فهو بحاجة إلى عقيدة تقنعه، وعلى مستوى الإدراك بضرورة المحافظة على السّلام في الأوقات كلّها.

نستطيع أن نجد أمثلة على هذا من تاريخنا البشريّ. ولنأخذ الديمقراطيّة مثالًا. فلطالما دافع الإنسان على نحو فطريّ عن فكرة التنظيم الديمقراطيّ، والأمثلة من التاريخ البشريّ موجودة؛ حيـث أُسّس مثل هذا النظام بنجاح، ولو على نحو جزئيّ. ولكنّ وصول ثورة كاملة مبنيّة على أسس الديمقراطيّة أصبح حقيقة فقط، عندما قدّم مفكرو أوروبا الحديثة هذه الآمال والطموحات البشريّة على شكل عقيدة متكاملة.

وحالة السّلام هي حالة مشابهة هنا؛ حيث إنّ السّلام كان يُعَدّ حاجة بشريّة لمختلف العصور. ومعَ هذا، وفي الوقت الحالي، فإنّ السّلام أصبحَ حاجةً ماسةً لبقاء الجنس البشريّ؛ حيث إنه أصبح فعليًّا مسألة حياة للبشريّة أو موت. فالسّلام يعني الحياة، وغيابه يعني الموت.

إنّ هدف الكاتب هنا هو أن يقدّم السّلام في صورة عقيدة متكاملة، عقيدة توقظ الوعي البشريّ– عقيدة قادرة على توفير الحلول المستقاة من السّلام لمشكلات الحياة كلها، وقادرة أيضًا على وصف الأهميّة الملحّة للسلام بدءًا من مستوى الفرد، ووصولًا إلى مستوى المجتمع. وبذا، فإنّ السّلام هو متطلب السابق لكلّ أنواع التقدّم البشريّ. فبالسّلام نتقدّم، ومن دونه يكون الدمار.

إذن، ما ضرورة وجود عقيدة للسلام؟

هناك سببان رئيسان لذلك. فعندما يؤكّد الإنسان هدفًا ما، فإنّه يتبنّى عاملًا معيّنًا ويهمل آخرَ. وهذا يحدث بالاقتناع فقط في حال توافر التسويغ النظريّ الواضح. ومن غير هذا، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يكون متحمّسًا لقبول أو رفض أيّ مفهوم أو ممارسة. مثلًا، إذا اقتنعت مجموعة معيّنة أنّ حقوقهم قد اغتصبت، وأن عليهم من أجل رفع الظلم عنهم اللجوء إلى العنف، فسوف يكون من المستحيل جعلهم يعدلون عن رأيهم، ما لم نكن قادرين أن نثبت بحجج قوية أنّ العنف ليس السبيل إلى حلّ مشكلاتهم، وأنّ مثل هذا المسار لن يؤدي إلا إلى زيادة تفاقم الأمور، ولن يعيد إليهم حقوقهم. ولاستدراج هؤلاء الأفراد إلى طريق السّلام؛ لابدّ من إقناعهم بعقيدة تستند إلى المنطق، مفادها أنّ تحقيق أهدافهم لا يكون إلا بالتخلي عن العنف، وخوض نضالهم بالطرق السلمية. إننا نحتاج إلى عقيدة تمنحنا الأُسس المنطقيّة التي تقنعنا بضرورة رفض أسلوب وتبنّي آخرَ.

فالإنسان يستطيع إنجاز أيّ مهمّة معطاة إذا ما توافرت لديه القناعة الفكريّة بمصداقيّة تطبيقها وعملها. إنها عقيدة تمنح الإنسان الضمانات المناسبة، وإلا كانت النتائج مثبّطة وعكسيّة بغياب الطاقة الضروريّة والحماسة، وهما العنصران الأساسيّان لنجاح أيّ مقاومة، وانتصار أيّ كفاح.

وفي السياق نفسه، فإنّ الشجاعة هي المحفّز الأقوى في رحلة الحياة. فالإنسان القويّ يستطيع تسلق قمم الجبال، ومن يفتقر إلى الشجاعة يصعب عليه السير حتى في الطرق الممهّدة. ولكن، ما مصدر الشجاعة للإنسان؟ إنها أيضًا عقيدة تزوّد الإنسان بالشجاعة ليسلك درب السّلام. لقد قيل: (إنّ الإنسان حيوان عاقل)، وقيل أيضًا: (الإنسان حيوان يسعى إلى التفسير). وكلا القولين هنا يشيران إلى النقطة نفسها، وهي: أنّ الإنسان يستقي إشباعه العقلي من أفعاله فقط حينما تكون أهدافه قد تأسّست بصفتها حقًّا له، وبصورة مبنيّة على الخطاب العقلانيّ. إنّ محاولة تطوير عقيدة كاملة مبنيّة على أسس السّلام هي بأهميّة السّلام نفسه، والعكس صحيح؛ فكلاهما مترابط، ولا تعيش إحداهما من غير الأخرى.

إنّ مثل هذا العنف الذي نشهده في الوقت الحالي من. لقد تسببت حروب الدمار والعنف التي تشنها مجموعات غير شرعية في صور لا مثيل له في كل العصور حرب عصابات أو حرب بالوكالة في الجاف أذى كبيرًا للبشريّة، ووقف في طريق تقدّمها وازدهارها، وهذه حقيقة يعيشها سكان الأرض كلّهم. ولكن، كيف يمكن تفسير هذا؟ إنّ السبب واضح: فالناس لا يمتلكون عقيدة كاملة تفضّل السّلام، في حين يبقى التفسير الوحيد لممارسة العنف هو قوّة مشاعر العامّة وغضبهم؛ فعندما يشعر ناشط بالحاجة إلى أن يكون قائدًا للعالم، أو عندما يُستثار مجتمع للانتقام لما أصابه من خسائر ومعاناة، فإنه

لا حاجة حينئذٍ إلى أي تبرير منطقـيّ أو عقلانيّ للعدائية. إنّ قوّة المشاعر والعاطفة تكفي لتحريك القادة وأتباعهم على حد سواء، ولكن عندما يكون الحديث عن السّلام، واتّبـاع أساليبَ سلميّة لطرح الحلـول، فإنّ هذا يكون ممكنًا فقط إذا كان هنالك تبرير قويّ للسلام. ففي حين يعدّ العنف فطريًّا، فإنّ السّلام يحتاج إلى انضباط عقلي، وقدرة على التحكم في النفس، فالكلّ يريد إثبات نفسه بنفيـه للآخرين. وعليه، فـكلّ ما نحتاج هـو إليه انفجار عاطفيّ قصير كافٍ للمضيّ قدُمًا بالعنف. على خلاف الأفعال السلميّة التي تحتاج إلى فكر جديّ لتتكامل.

إنّ الحلّ الوحيد لهـذه المعضلة يكمن في امتلاك الإنسـان عقيدة كاملة وشاملة للسلام. ولعلّ المشكلة الفعليّة لأيّامنا هذه هي عدم وجود مثل هذه العقيدة على أرض الواقع. وهنا نطرح السؤال الآتي: لماذا هذا الجانب السلبيّ في النفس البشريّة؟

إنّ هذا مرتبط بسنـة الله في خلقـه، ولا يمكن فهم هذا الجانـب إلا إذا ربطنا ذلـك بمشيئة الله في خلقـه. إن هذه الدنيا هي أرض الاختبار التي صمّمها الخالـق للبشريّة؛ حيث منح الخالق الحريّـة التامّة في هذا العالم، وهي حريّة لم يكن القصد منها التسبب في الفضوى، بل كان هدفها بيان إن كان باستطاعة الإنسان المضيّ في حياة منضبطـة على الرغم من الحرية الكاملة التي مُنحت له. إنّ على الإنسـان أن يرتقي بنفسه من المستوى غير الأخلاقيّ للحيوان إلى المستوى الأخلاقيّ للبشر.

وعلـى الرّغم من ممارستـه مشاعر الغضـب والكراهية، ووجـود الحافز لممارسة العنف، فإنّ عليه أنْ يصبـح حاضنًا للحبّ والسّلام. وعندما تأكل

المشاعر السلبيّة قلبه، فإنّ عليه أن يكون قادرًا على التخلص منها، ويرتقي بنفسه إلى مستوى المفكر الإيجابيّ.

باختصـار، فعلى الرّغم من امتـلاك الإنسان الحريّةَ الكاملـة، فإنّ عليه وبإرادته الشخصيّة أن يكون مثالًا للسلوك المنضبط والخلق السويّ، والإنسان الذي يقود نفسـه بانضباط يكون قـد اجتاز اختبار الخالـق، وأولئك الذين يتصرّفون بهذه الطريقة هم فقط الذيـن سيختارهم الله تعالى، خالق هذا الكون وحافظه؛ ليتمتعوا برحمته في جنّات الخلد.

إنّ دراسة علم النفس تخبرنا بأنّ الإنسان بطبعه محبّ للذات، وكلما تأذّت هذه (الأنا)، فإنّ ردّة فعل عدائيّة تنتج، ومن ثم تتطـوّر إلى كراهية ورغبة في اللجوء إلـى ممارسة العنف. علمًا بـأنّ هذه النقطة قـد تناولها بوضوح الكاتب (C.M.Joad)، في كتابه (الشرّ المعاصر The Modern Wickedness)، وهي نقطة الضعف النفسيّة في النفس البشريّة، التي تعزى إليها حقيقة أنّ الاختلافات تأخـذ غالبًا شكل الكراهية، التي بدورها تقـود إلى العنف على نحو متكرّر.

إنّ هذا كله يُظهر أنّ العنف ليس في حاجة إلى أيّ عقيدة؛ فالعنف يظهر ويشتعل ذاتيًّا، مع أنه فيما يخصّ السّلام الاختيارُ الذي نتبنّاه نحن بأيدينا. وبذا، فإنّ السّلام يحتاج إلى كفاح إيجابيّ، وتصميم قويّ من خلال عقيدة واضحة متكاملة.

إنّ الاستعدادَ للمحافظة على السّلام - مسألة اتخاذ قرارٍ واعٍ - مزية بشريّة نبيلة. أمّا السّلام، فإنّ على الإنسان أن يَحُدَّ من غضبه وأن يكون متسامحًا، وعليـه أن يسيطر علـى مشاعـر الكراهيـة، وأن ينمّي مشاعـر الحب تجاه

الآخرين. فإذا أردنا أن نعمل على استدامة السّلام. فإنّ علينا كبح التفكير السلبيّ والاستعاضة عنه بالتفكير البنّاء. ولكي يصبح السّلام حقيقة فإنّ على الإنسان أن يكون متمنيًا جيّدًا للخير بدلًا من أن يكون صاحب نيّة سيّئة. وعليه، فإنّ الاستفزاز يعدّ كافيًا لانطلاق العنف. ولكن لكي يستمرّ السّلام فإنّ على الإنسان أن يبطل الاستفزاز، ويتحلى بالاعتدال وضبط النفس.

إنّ الإنسان بممارسته للعنف يتبع غرائزه الأساسيّة، ولكن لتعزيز السّلام فإنّ عليه أن يقوم بتغيير أخلاقيّ كامل في نفسه. وليس قبل مثل هذا التحوّل، يستطيع الفرد أن يكون قادرًا على أن يؤدِّيَ دور محبٍّ للسلام.

إنّ الحاجة تكمن في تحويل اللاسلام إلى السّلام؛ حيث يتمكّن الفرد بعد هذا التحوّل من أن يؤدّي دور الشخص المسالم. ولهذا السبب، فإنّ عقيدة شاملة للسلام تكـون ضروريّة، والشـيء الأكيد أنّ هذا لـن يتحقق بإطلاق النداءات والتصريحات؛ لأنها لن تقنع الناس بتبني الوسائل السلميّة.

ولقد حملت الأحداث التاريخيّة مثل هذا كما في خبرتي الشخصيّة؛ إذ كنت منخرطًا في مهمّة سلام للسنوات الخمس عشـرة الأخيرة، وأستطيع القول وبكل اقتناع: إنّ المئات والألوف من الشباب، الذين -وبإيعاز من عواطفهم- كانوا قد سيقوا للعنف والتشدّد، قد اختبروا ثورة في تفكيرهم بعد استماعهم إلى منطق ما أقوله ودراستهم كتاباتي، وعبر الحجج القويّة، قد صنعت غلبة للسلام. لقد هجر هؤلاء طريق العنف، وتبنوا طريق السّلام.

في المقابل، اكتشفت أنّ هؤلاء الشباب، كانوا قد اعتقدوا وعلى نحو غير صحيح، أنّ العنف مساوٍ للشجاعة، وأنّ الأفعال السلميّة مساوية للجبن. لقد اعتقدوا أنّ بإمكانهم تحقيق كلّ شيء بالعنف، وأنّ الوسائل السلميّة لن تجلب

لهم منفعة. وبهذا الفهم غير الصحيح، اعتقدوا أنّ العنف يعني التقدّم، وأنّ السلم يعني التخلف.

وبعبارات أخرى، فقد كانت لديهم عقيدة (عنـف) لا عقيدة سلام. ومعَ هذا فإنهم أصبحوا مقتنعين بحجج مُفادها أنه لا توجد هناك عقيدة حقيقيّة في صالـح العنف، وأنّ العقيـدة الصحيحة تقف بجانب السّـلام في الواقع الحقيقيّ. إضافة إلى ذلك، فقد أصبح جليًا لهم أنّ نهج العنف الذي سلكوه؛ لأجل تحقيق التقدّم في مصالحهم كان انتحاريًا في نهاية المطاف، أما نهج السّلام الذي قاطعوه لاعتقادهم أنه غير منتج، فكان في الحقيقة هو الطريق الصحيح إلى التقدّم.

وبعد هذا الاكتشاف الفكريّ، فقد خضعت حياتهم لتحوّل من كونهم كانوا ناشطي عنف إلى ناشطي سلام. وفي الحقيقة، وفي بقاع مختلفة من العالم، فإنّ هناك عددًا كبيـرًا من الشباب، الذين بعـد أن أصبحوا مدركين تمامًا لحقيقة هذه المسألة قاطعوا العنف في سبيل تسخير طاقاتِهم في مصلحة مجالٍ سلميٍّ في الحياة، مثل: التعلم، والإصلاح الاجتماعيّ، والدعوة للسلام.

الفصل الثاني: السّلام والعنف

لقد عَرّف الباحثون السّلام على أنه غياب الحرب. ومن الناحية الفنيّة فإنّ هذا صحيح؛ إذ حينما لا يكون هناك صراع مسلح في مجتمع، فإنّ حالة السلم تجد نفسها تلقائيًا. ومعَ هذا، فإنّ تأسيس السلم في مجتمع لا يكون بوضع حدّ للحرب والعنف فقط، وإنما هذا يعدّ المرحلة الأولى في تحقيق السّلام. وكلّما حلّ السّلام في مجتمع بالمعنى الحقيقيّ، فإن أفراده ينخرطون في أنشطة إيجابيّة، ينجم عنها توجيه طاقاتهم كلّها في سبيل إعادة بناء حياتهم الذاتية وبناء بيئتهم الاجتماعيّة.

إنّ إرساء السّلام يمكن تشبيهه بإزالة سدّ من نهر؛ فحياة البشر مثل نهر جارٍ تريد أن تتدفق قدمًا بقوة اندفاعها الذاتية، وحينما لا يكون هناك أيّ عائق، فإنّ أنشطة الحياة جميعها تدبّ فيها الحركة، تدفعها الطبيعة البشريّة نفسها، وتتوقف هذه الحركة فقط حينما توضع حواجز الحرب والعنف المصطنعة أمامها. إنّ السّلام بنتائجه يشبه فتح أبواب الحياة كاملة على مصراعيها.

وفي هذا السياق، فإننا نجد بعضهم يسمّون هذا النوع من السّلام سلبيًا، فيقولون: إنّ السّلام لا قيمة له ما لم ترافقه العدالة. وهؤلاء إذا عرضنا عليهم السّلام نقيًا وبسيطًا فإنهم لن يقبلوا به؛ إذ هم يتمسكون بفكرة أنه لابدّ من تقديم العدالة أولًا، ومن ثَمّ الحقوق. وفي المحصلة، فإنّ هؤلاء يستطيعون العيش بسلم معَ الآخرين؛ إذ إنّ (السّلام معَ العدالة) هي كلمة سرّهم. وحقيقة الأمر أنّ هذا يظهر نقصًا في واقعيّة تفكيرهم؛ فالعدالة لا

تتحقّق مباشرة من حالة السلم؛ لأنّ هدف تأسيس السّلام هو في الحقيقة، فتح قنوات لتحقيق العدالة بدلًا من جلبها على نحو واقعيّ إلى حيّز الوجود.

وبالتأكيد، فإنّ السّلام حالة نرغب في وجودها؛ إذ بحلولها تصبح الفرصة مواتية لكلّ شخص ليضع خططه، وينجز ما يشاء. لكنّ أولئك الذين يصرّون على العدالة بأنها شرط يترافق معَ السّـلام لن يتوصلوا إلى السلام ولا إلى العدالة، وسيستمرّون في القتال تحت مسمّى تحقيق العدالة. وبهذه الطريقة فهم لا يسمحـون بإحـلال السّلام الـذي سيزوّدهـم بالظـروف المناسبة لتحقيقها.

عمومًا، يُنظر إلى السّـلام على أنه نقيض الحرب. علمًـا أنّ هذه النظرة ضيّقة؛ فالحقيقة هي أن السّلام ينتمي إلى طيف الحياة الكامل، إنه في حدّ ذاته يعدّ عقيدة كاملـة؛ فهو المفتاح الرئيس الذي يفتـح الأبواب كلّها أمام النجاح، ويمهّد الطريق للجهود المخلصة في الأطياف جميعها. إننا نستطيع في حالة السّلام أن نتعامل معَ أي هدف، ومن غير السّلام فإنه من المستحيل أن نمضي على نحو بنّاء، وهذا ينطبق على مجالات الحياة جميعها؛ الكبيرة منها والصغيرة.

الفرق بين السّلام والعـنف

إنّ السّلام هو نتيجة لأفعال خُطّطَ لهـا مسبقًا، أمّا العنف -بكلّ بساطة- فهو ردّة فعل عدائيّة لأيّ نوع من الاستفزاز. والشخص المحبّ للسلام يمثل الحقيقة، ويعيش وحبّ الآخرين يملأ قلبـه، إنه يفكر أولًا ومن ثمّ يتصرّف، في حين يمثل الشخـص العنيف الباطل، ويستهلك حقـدُه على الآخرين كلّ مشاعره، وفعله يسبق تفكيـره. وعليه، فإنّ الأمل يرافـق العمل السلميّ من

البداية إلى النهاية، في حين يترافق العنف معَ آمال غير صحيحة نبتدئ بها ولا يتبعها عاجلًا إلا الإحباط.

إنّ طريق السّلام تأخذ مسلكًا مستويًا من البداية إلى النهاية، مقابل طريق العنف الوعر المليء بالعوائق. والسّلام إنّما يحتوي على البناء، أمّا في العنف فلا نجد غير الدمار. أضف إلى ذلك أنّ السبيل السلمي ينتهي بالنجاح، في حين لا يُحصد في السبيل العدائيّ إلا الندم والإحباط.

وخلاصـة الأمـر: أنّ طريـق السّـلام هـي طريـق الإنسانيّـة، وطريـق العنـف هـي طريـق الوحشيّـة. ففـي حيـن يكـون الفعـل السلمـيّ مقبولًا ضمن إطار القانـون، فإنّ الفعـل العنيف يكـون خارجًا على القانـون كليًّا. وبذا، فإننـا بلجوئنـا إلى الوسائـل السلميّـة لن نخسـر شيئًا، بـل سنربح كلّ شـيء، والخسـارة إنّما هـي فـي الوسائل العدائيـة التـي لا ينجم عنها إلا كلّ شرّ وسوء.

ومن هنا، فـإنّ الشخـص المحبّ للسـلام يهمل المشـكلات، وينتفع من الفرص المتوافرة، أمّا الشخص المحبّ للعنف فيترك الفرص كلها، ويستمرّ في صراعه معَ المشكلات. وفـي الوقت الذي نجني فيه مـن السلم حديقة من الزهور، فإننا باتباعنا أعمال العنف نغرس غابة كاملة من بذور الحقد والكراهية.

وباختصار، فإنّ ثقافة السّلام هي ثقافة الخير، أمّا ثقافة العنف فهي ثقافة الشرّ؛ ففي السّلام نكرّم حقوق الله وحقوق البشر، مقابل انتهاك حقوق الله وحقوق البشر حيثُ ينتشر العنف. وبذا، فإنْ كان السّلام فردوسًا فإنّ العنف هو الجحيم ذاتها.

ولمّا كانت سبل السّـلام والحرب المتعاكسة مفتوحة أمـام الإنسان، فإنّ السّلام هو الخيار الحقيقي له؛ فالحرب ليست إلا دليلًا على أنه اتخذ الخيار غير الصحيح، وهذا يعني أنه قد فشل في هذا الاختبار. وعليه، فالحقيقة هي أنّ الحرب والعنف ليسا خيارين صالحين لأي فرد أو مجتمع أو أمة.

وعلى الرّغم من أنّ العالم يتوافر فيه كثير من الإغراءات، فإنّ الحقيقة التي لا خلاف فيها أنّ تلك الإغراءات موجودة لتضع الإنسان تحت الاختبار. لذا فإنها ليست مرغوبة للإنسان. فعلى سبيل المثال، الكحول متوافرة، ولكنها ليست صالحـة لاستهلاك البشر، بل هـي على العكس موجـودة لنمتنع عن تناولها، ولنثبت قدرتنا على التمييز بين ما هو خير وما هو شرّ. إنه إغراء، نثبت إذا تجاوزناه أننا حكماء، ونؤكـد كوننا أصحاب مبادئ. والشيء نفسه ينطبق على الحرب، فعلى الرّغم من أنّ طريقها مفتوح للجميع، فإنّ السلوك الأنبل يكون بالامتناع عن اختياره.

لقـد سمحت الظـروف السائدة قديمًا بالحـرب دفاعًا عـن النفس، لكن هذه الرّخصة في الذهاب إلى الحرب توافقت معَ الضرورة. أمّا في الظرف الحاليّ، فإنّ هذه الحاجة لم يعد إليها وجود، لهذا لابدّ من فرض حظر عام على الحرب.

الفرق بين العصرين الزراعيّ والصناعيّ

وفيما يخصّ الحرب، فقد اتفقت الديانات والأنظمة العقديّة جميعها على مبدأ واحد، هو أنه مهما كان المبرّر لشنّها؛ أي حتى لو كانت حربًا مشروعة تمامًا، فإنّ المدنيين غير المقاتلين لا يجب أن يُعتدى عليهم أو يقتلوا؛ إذ إنّ قتل من لا يحمل السلاح عمل غير مقبول نهائيًا.

دعونا الآن نلقي نظرة على كيفيّة تنفيذ هذا المبـدأ في وقت الحرب. إنّ هذا الشـرط؛ أي مهاجمة المحاربين فقط، يمكن إنجـازه فقط في العصر الزراعيّ. فاليوم، وبفضل التقدّم العلمـيّ التقنيّ، فإنّ الحرب تشنّ بأسلحة متفجّرة تؤدّي إلى دمار شامل. فحينما تسقط قنبلة على منطقة مأهولة فإنها لا تملك إلا أن تقتل أعدادًا كبيرة من المسلحيـن وغير المسلحين، ومن ثمّ فمن المستحيل تقريبًا تحقيق هذا الشرط.

إنّ هذا يظهر عمليًـا أنّ الإنسان في الوقت الحالي أمـام خيارين: إمّا أن يمتنع عن الحرب على أساس أنّ شرط احتـرام الإنسانيّة لا يمكن تطبيقه، أو أن يرتكب الجريمـة ملقيًا نفسه بتهوّر في الحـرب، متجاهلًا الاعتبارات الإنسانيّة جميعها. وحين نغوص عميقًا في المسألـة، فإننا نكتشف حقيقة مهمّة؛ ففي الوقت الحالي، نجد من جهة أنّ هذه الظروف لا تسمح لنا بتلبية الشروط المرغوب فيها كلها لشنّ الحرب، ولكن مـن جهة أخرى، فإنّ مثل هذه الموارد قد أتيحت بسبب الثورة الصناعيّة لتسمح لنا بتحقيق أهدافنا بوسائلَ سلميّة بحتـة. وفعلًا، فإننا نتوقع أن نكسـب انتصارات كبيرة اليوم بوسائلَ سلميّة أكثر ممّا كان يمكن تحقيقه بشـنّ الحرب في أوقات سابقة. لذا، فإنه يجب التسليم بأنّ الحرب كما كانت تُخاض قديمًا قد باتت عديمة للجدوى بسبب الثورة الصناعيّة الحديثة.

عندما نبقي هذه الحقيقة ماثلة أمامنا، يمكننا بأمـان أن نخلص إلى أنّ الحرب العنيفة كانت نتاج الظروف التي كانت سائدة في العصر الزراعيّ. وهذا النوع من الحرب في العصر الصناعيّ، ونظـرًا إلى النتائج العكسية، أصبح مرفوضًا من حيثُ المبدأ.

مَعَ نهاية العصر الزراعيّ، وصلتها طريق النضال العنيف إلى نهايتها على الأقلّ نظريًّا، وفي ظلّ الظروف الراهنـة، فإنّ الأسلوب السلميّ هو الأسلوب الوحيد، والآن لا يوجد عذر يبرّر العنف أو الحرب.

يتّضح الفرق بين السّلام والعنف جليًّا عن طريـق بناء عشّ طائر؛ فالعشّ لا يُبنى إلا من خلال جهد سلمـيّ، في حين يدمّره العنـف. وينطبق الشيء نفسه على الحياة البشريّة؛ فـإذا أردنا إنجاز أيّ عمل إبداعيّ فـي الحياة فلابدّ من جهود سلميّة للقيام به. وبذا، فإنّ العنف يدمّر الحياة، ولا يستطيع بناءها أبدًا.

ثمـن السّلام

لكلّ شيء ثمن، حتى السّلام؛ إذ لا يستطيع أيّ فرد أو جماعة الحصول عليه ما لم يكونوا مستعدين ليدفعوا له مقدّمًا. وإن القابليّة لفعل هذا لابدّ لها من معاناة، وحتمًا سينجم عنها خسائر.

بناءً على القانون الذي يحكم نظام العالم الحاليّ، ووَفقًا لقاعدة (لا مكسب بغير مخاطرة)، فمـن الضروريّ للناس أن يتكبّدوا الخسائـر من مختلف الأنواع. ففي أوقات نراهم، على نحو غير عادل، يلقون تحدّيًا من الآخرين؛ ويقعون فريسة الصعـاب الاقتصاديّة، ويعانون خسائرَ فـي الأرض والمال، ويتعرّضون لحادث أو يُحرمون بعض المنافع التي هي في الأصل حقّ لهم.

إنّ الخبرات غير السارّة من هذا النوع، ووَفقًا لقانون الطبيعة، يتعرض لها الناس بين حين وآخر في هذا العالم، من أفـراد ومجتمعات وأمم. وإذا لم يكن للناس قابليّة في مثل هذه الظروف لتحمّل الخسارة، فإنّ النتيجة ستكون

هي العنف. ولكن، إذا كانت لديهم القابليّة لتقديم التضحيات، فإنّ النتيجة حتمًا ستكون السّلام.

إن اختيار طريق الصبر والتسامح لا يعني سلوك طريق الهزيمة والتراجع. إنها في الحقيقة خطة نحو المستقبل، تصل إلى حدّ القبول الطوعي للواقع طوعيّ، ما يعني أنه حتى بعد فقدان شيء مـا، على الإنسان أن يتذكّر دائمًا أنه ما زال يمتلك كثيرًا من الأشياء، التـي يستطيع من خلال الاستفادة من إحداها إعادة بناء ما فقده.

إنّ فائدة الصبر والتسامح – وحتى بعد تكبّد الخسائر – هي أنّ الشخص المتكول لا يفقد توازنه. وعلى الرّغم من الهزيمة المؤقتة، فإنه لا يفقد القدرة على التفكير بذهن صافٍ، عن طريق إجراء تقييم واقعيّ لوضعه، والتخطيط لحياته من جديد. وبوساطة نسيان ما ضاع منه، فإنه يعيد تنظيم عمله على أساسِ ما تبقى لديه.

إن من شأن الإحباط أن يعطي أولية للتخطيط الشخص وينطلق الشخص في رحلة حياته من جديد. إنّ المزية الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها في عالمنا هي أنّ الليل دائمًا يعقبه النهار.

إنّ هذا العالم مليء بالاحتمالات والفرص. فهنا، وبعد فقدان فرصة واحدة فإنّ الإنسان سيجد أخرى. وهنا، وعندما يجـد بابًا مُوصَدًا في وجهه، فإنه سيجد أبوابًا أخرى مفتوحة أمامه. وهكذا، هناك دائمًا احتمال أنه بعد فشل مجموعة من الخطط، فإنه قـد يباشر العمل في مجموعـة أخرى، وفي بناء حياته من جديد. والحقيقة التي لا خِـلاف عليها في هذا العالم أنّ كلّ خبر

سيئ تتبعه أنباء جيّدة. فكلّ حادث ضارّ يحمل لنا بشائرَ جيّدة بأننا لا يجب أن نقع ضحية للإحباط واليأس.

بدلًا من هذا الإحباط وذلك اليأس، فإنه يجب علينا أن نستجمع ما يكفي من الشجاعة للبحث عن الجديد من الفرص. إنّ نظام الطبيعة يخبرنا مقدّمًا بأنّ الحرمان لدينا لن يدوم إلى الأبد، وقريبًا سوف نكون قادرين على بناء عالم أفضل لأنفسنـا، وقريبًا أيضًا سوف تكون هزيمتنـا بداية انتصار. إنّ أولئك غير القادرين على تحمّل الخسائر يميلون إلى التفكير السلبيّ، وبهذه الطريقة فإنّ حياتهـم تصبح عبئًا عليهم وعلى الآخريـن. وعلى العكس من ذلك، فإنّ أولئك الذين يمتلكـون الصبر، ولديهم الشجاعـة حتمًا سيبنون صرحًا جديدًا على أنقاض الماضي؛ فبعد الليل يأتي الفجر، الذي سيتمكنون من أن يكملوا رحلتهم في ضوئه من غير توقف. ومـعَ ذلك، فإنّ هذه الغاية النبيلة تنتظر فقط أولئك الذين يمتنعون عن العنف، وينخرطون في أنشطة سلميّة، بغضّ النظر عن الظروف.

السّلام قوّة عظمى

إنّ قوّة السّلام أكبر بكثير من قوّة العنف، ومن لا يدرك هذه الحقيقة فإنه يعتمد مسار العنف من أجل تحقيق أهدافه، ويكـون بذلك معبّرًا عن غبائه الشخصيّ.

إنّ السّلام هو طريق الحكيم، في حين أنّ العنف هو طريق الأحمق. والسلم والحرب ليسا مجرّد وضعين متساويين للإنجـاز بالمعنى البسيط للعبارة، بل إنهما يشيران إلى معيارين مختلفين للإنسانيّة. وعليه، فإنّ الذي يعتمد

طريق السّلام يرفع مستوى الإنسانيّة، أمّا الذي يتبنّى طريق العنف فيخفضه بلا شكّ.

في الأوقات الصعبة، عندما يختار الفرد طريق السّلام، فإنه يجني ثمار التفكير الإيجابيّ، ويرفع معاييـره الأخلاقيّة، ويذهب من قوّة إلى أخرى في تحسين شخصيّته الذاتية. وفـي الواقع، فإنه يعطي دليـلا عمليًا على كونه إنسانًا. وعلى العكس من ذلك، عندما يختار طريق العنف في حلّ المشكلات، فإنه ينزلق أسفل منحدر زلق نحو الهلاك، ويجعلنا نتشكك في إنسانيته.

إنّ الميل نحو السّلام أو العنف يُعَدّ مؤشرًا على شخصيّة الإنسان الحقيقيّة؛ فإذا أثبت الأول إنسانيّة الشخص، فإنّ الأخير يثبت وحشيّته على أنه حيوان برغم مظهره الإنساني.

إنّ السلوك المسالم يدلّ على ضبط النفس، وضبط النفس هو بلا ريب قوّة كبيرة جدًّا؛ فهو يبعد الإنسان عن المشاركـة في أعمال سلبيّة، مثل العنف. ومن لا يملك قوّة ضبط النفس سيغضب إذا تعرّض لاستفزاز، ويلقي بنفسه في أعمال العنف. وبذا، فإنّ السيطرة على غضب المرء هو سبيل الشخص المسالم، في حين أنّ فقـدان سيطرة المرء على نفسه عنـد الاستفزاز هو سبيل الشخص العنيف.

المصالحة هي الأفضل

في أيّ مسألة خلافية، إحدى طرق التسوية أمام كلا الطرفين هي الدخول فـي مواجهة عنيفة. لكـن أفضل طريقـة لتسوية النزاعات هـي في إحداث المصالحة في البداية؛ كون المصالحة تعدّ صمام الأمان في أيّ حالة فيها

مصالحُ متضاربة، وحيث تكون الأعصاب على وشك الانفجار. ولذلك، وفي أوقات الاستفزاز، فإنّ أفضل مسار يمكن اتخاذه هو التصالح بدلًا من مسار المواجهة. إنّ هذا هو قانون الطبيعة. ومعَ ذلك، فإنه نادرًا ما يحدث أنّ مثل هذه المصالحة تعكس تمامًا رغبات كلّ من الطرفين المتنازعين.

في غالبية الحالات، تكون المصالحة ممكنة فقط على أساس أحادي الجانب. وهذا يعني أنّ على طرف من الأطراف المتنازعة أن يقمع ميوله الذاتية، ويظهر استعدادًا لوضع حدّ للنزاع وَفقًا لرغبات الطرف الآخر.

لماذا يكون هذا النوع من المصالحة الأحادي الجانب والأفضل؟ إنّ الفائدة الرئيسة هي، ومن غير إضاعة الطاقة والوقت في مشاحنات لا لزوم لها، يكون قادرًا على اتخاذ مسار عمل بنّاء، في حين أنّ حالة المواجهة تضع حَدًّا لكلّ نشاط من هذا القبيل.

ويظهر التاريخ أنّ أيّ نجاح على مستوى الفرد أو المجتمع قد أُنجز باعتماد أسلوب التصالحيّة، فمسار التصادم والمواجهة لم يؤدِّ إلى أيّ نجاح حقيقيّ في هذا العالم. وبذا، فإنّ المصالحة أمر حيويّ؛ لأنها تعطي الإنسان الفرصة للإفادة من الفرص المتوافرة إلى أقصى حدّ، في حين تؤدّي المواجهة إلى توجيه طاقاته كلها للتخطيط لتدمير الآخرين. ومن ثَمّ فإنّ أعمال البناء لا مكان لها هنا، مع أنّ سرّ النجاح الحقيقيّ يكمن في البناء والوحدة بدلًا من تدمير الأعداء المفترَضين.

يبرّر كثير من الناس العنف بقولهم: إنهم كانوا ضحية للدسائس والمؤامرات، وكان لابد لهم من وضع حدّ لذلك بالقتال. وهذا العذر لا يستند

إلى أيّ أساس من الصّحة؛ فما يُنظر إليه بأنه مؤامرة هو في الواقع العمليّ مظهر من مظاهر خطة تجذرت في العالم الحالي على أنها قانون طبيعيّ.

في العالم الحالي، لا تكمن المشكلة الحقيقيّة لأي مجتمع في أنّ له أعداء يتآمرون ضدّه، بل في أنّ ذلك المجتمع فشل في تطهير نفسه من الضعف الذي يعطي الآخرين بفرصة لاستغلاله. إنّ حالة السّلام المستقرّة تكون ضمانًا ضدّ هذا النوع من الاستغلال؛ فالعنف يعني أن نجعل أنفسنا غير آمنين عن طريق كسر خطّ الدفاع.



الفصل الثالث: طرائق السّلام ووسائله

مثلما أنّ العنفَ وسيلةٌ في الحياة، فإنّ السّلام ثقافة كاملة في حدّ ذاتها. وتمامًا مثلما أنّ هناك طرائق للعنف، فإنّ للسلام مبادئ وطرائق واضحة. وهنا، نذكر بعض الأساليب التي لها علاقة بسلوك الأنشطة السلميّة، وسوف يظهر هذا كيـف يمكن إحــلال ثقافة السّــلام، وكيف يمكن للمــرء بالطبع تخطيط مسار حياته في الأمور كافة؛ حتى يتسنّى للبشر جميعهم العثور على فرص لتحقيق طموحاتهم.

التسامح هو السّلام

إنّ نتيجة عدم التسامــح هي العنف، ونتيجة التسامح هــي السّلام. وهذا يلخّص جوهر كلّ من السّلام والعنف. إنّ جوًّا من السّلام سوف يسود في أيّ مجتمع من المجتمعات التي تتميّــز بالتسامح، في حين يسود جوّ من العنف في أيّ مجتمع يعاني فيه غالبيّة الناس نقصًا في ذاك التسامح. وَوَفقًا لنظام الطبيعة، فإنّ العنف ليس مفيدًا، لا لمرتكبيه ولا لأولئك الذين يتعرّضون له.

إنّ التسامح مزية إنسانيّة أخلاقيّة عالية الجودة، في حين أنّ التعصّب هو انحطاط إلى مستوى الحيوان. وعليه، فإنّ فعل التسامح ليس مسألة إكراه: إنه ينتج على نحو طبيعي من الفاعل، وهو في حالة سموٍّ أخلاقيّ معنويّ. إنّ أيّ هدف نسعى إلى تحقيقه من خلال القــوّة الغاشمة، يمكن تحقيقه دائمًا على نحو أفضل عن طريق التسامــح؛ فعندما يصبح الفرد غير متسامح في

حالات غير سارّة، فإنه يضعف نفسه إلى حدّ كبير، ويصبح من ثَمّ غيرَ قادر على التعامل معَ المشكلات على نحو فاعل. ولكن، عندما يحافظ على موقف التسامح فإنه يحفظ طاقاته كلها، ويكون قادرًا على التعامل بفاعليّة أكبرَ معَ المسائل المطروحة أمامه.

إنّ عدم الانحطاط إلى سلوك اللاتسامح، على الرغم من الأوضاع غير السارّة، هو دليل واضح على ضبط النفس. وكلّ من لديه هذه القدرة فإنها تعزّزه على نحو لا يمكن فيه لأحد أن يتغلب عليه.

التجنّب لا المواجهة

من الممكن جدًّا تجنّب العنف، وحتى مع وجود سبب لتبريره بوصفه خيارًا، وهذا ممكن من خلال الإستراتيجيّة السلميّة لتجنّب الصراع.

إنّ مثل هذا التجنّب يعدّ أنجع وسيلة للتخلّص من العنف، وأهمّ مبدأ لحياة اجتماعيّة سلمية. ومما لا شك فيه أنّ السير في طريق التجنّب يبقي الشخص في الجانب السلميّ، وعلى العكس تمامًا، فإنّ طريق المواجهة يدفع المرء إلى اتخاذ عمل العنف ضدّ الخصوم.

لا يوجد أيّ فرد أو مجتمع في العالم الحاضر يعيش وحيدًا. وهناك كثير من الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم، ويمتلكون جداول أعمال منفصلة مخصوصة بهم، لهذا السبب، فإنهم غالبًا ما يجدون أنفسهم في مواجهة معَ الآخرين.

في مثل هذه الحالة، هناك طريقان للإنسان: التجنّب أو المواجهة، ولا خيار ثالث. الآن، إذا اختار الإنسان المواجهة فإنّ النتيجة ستكون صدامًا. ومن

الواضح من تاريخ الإنسانيّة كاملًا أنّ المواجهة تصعّد مشاعرَ العداء في قلوب الناس. وبذا، فإنها لا تفيد أيًّا من الجانبين بأيّ صورة من الصور. ولذلك، ينبغي إعطاء أفضلية السياسة التجنّب على سياسة المواجهة، فطريق تفادي المواجهة توفّر عليك مزيدًا من الخسائر، فإنها أيضًا تسمح لك بمواصلة السير على طريق التقدّم من غير أيّ عائق.

وفي الواقع، فإنّ أيّ فعل تجنّب قد يبدو أنه يفيد الطرف الآخر، لكنّ هدفه الفعليّ هو إنقاذ الشخص من المواجهة العبثية، وهذا يتيح لرحلة حياة الإنسان أن تستمرّ من دون عراقيل.

النهج المعتمد

إنّ الذين يعتمدون أسلوب العنف هم أولئك الذين لا يتحلّون بالصبر، أو الذين لا يؤمنون بالمثابرة. أما الذين يختارون الحلّ السلميّ فيجدون أنّ قوانين الطبيعة جميعَها تكون في مصلحتهم. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الذين يختارون العنف لا يمكن أن يحظوا بمثل هذا التأييد من قوانين الطبيعة. ومن ثَمّ، لا يمكنهم التطلّع إلى أيّ شيء في العالم الواقعي سوى الفشل والخراب.

ما معنى (أن تخطو في طريق السّلام)؟ هذا يعني، أنّه حتى في مواجهة الأحداث غير السارّة، لا ينبغي للفرد أن يفقد صبره. وبهذه الطريقة، فإنّ خطّ تفكيره الإيجابيّ لن يصاب بالإحباط، وسيميّز، بوضوح بعدئذ بين الممكن والمستحيل. وبهذا فقط، سيكون قادرًا على تحديد الممكن هدفًا له؛ إذ يجب عليه هنا ألّا يتوقّع نتائج فوريّة.

فبدلًا من الشروع فورًا، في تحقيق مهمّته، عليه أن يختار الطريقة التدريجيّة. ولا ينبغي أن يصاب بالاكتئاب بسبب خسائره المتوقّعة، ولكن ينبغي أن يشارك في أنشطة هادفة، وعيناه تتطلعان قُدُمًا نحو المستقبل. وينبغي أيضًا أن يكون قانعًا بكلّ ما يحصل عليه في الحاضر، وأن يكون صبورًا بانتظار بركات المستقبل وخيراته. عليه إبقاء رغباته خاضعة لقوانين الطبيعة، بدلًا من محاولة جعل القوانين تخضع لرغباته. إنّ الصبر في حقيقة الأمر موقف إيجابيّ تمامًا، إنّه ليس سلبيًّا ولا حياديًّا.

تحويل العدو إلى صديق

إنّ سبيل العنف يزيد من عداوة الخصوم. وعلى العكس من ذلك، فإنّ سبيل السّلام يضع حدًّا لمثل هذه العداوة؛ إنّه يحوّل العداوة إلى صداقة.

وفي هذا السياق، فإنّ دراسة الطبيعة البشريّة تبيّن لنا أنّه قد يكون هناك صديق محتمل في داخل كلّ عدو. وعلينا أن نكتشف هذا الصديق، ونقبله حقيقة أنّ الشخص الذي كان في وقت ما عدونا اللدود أصبح صديقنا الحميم.

الحقيقة هي أنّ العداوة ليست أمرًا طبيعيًّا؛ إنّها ردّة فعل مصطنعة؛ وعندما يصبح أيّ شخص لأي سبب من الأسباب عدو، ينبغي عليك أن تظل دَمِثًا في تعاملك معَه، وأن تتصرّف جيّدًا، حتى لو كان ذلك من جانب واحد في مواجهة الاستفزاز. إنّ ردّ فعلك السلميّ هذا سيؤدّي إلى إخماد المشاعر السلبيّة في عدوك، إضافة إلى أنّ سلوكك الجيّد سيؤدّي إلى إيقاظ إنسانيّته من سباتها، ويحوّله إلى كائن بشريّ جديد أفضل من ذي قبل.

وفي الواقع أنّ المزاج نفسه يكون مشتركًا بين الأطفال حديثي الولادة جميعهم، وهذا ما يجعل كل إنسان منا طبيعيًّا في البداية، ثم يتحول لاحقًا إما إلى عدو أو إلى صديق وهذا يعني أنّ الطبيعة التي تمتلكها يمتلكها عدوّك أيضًا. ولذلك، يجب على المرء أن يبحث في العدوّ عن الإنسان المشترك بينهما، ويجب على كلّ فرد أن يتوقع من الآخرين ما يتوقع لنفسه. إنّ قانون الطبيعة يضمن بأنّ توقعاته لن تذهب سدىً.

نظام السبب والنتيجة

بعبارة أخرى، إنّ العنف هو إلقاء اللوم عن أخطاء شخص ما على الآخرين. لكنّ هذا العالم يستند إلى مبدأ السبب والنتيجة، وعندما يعاني أيّ شخص بعضَ الألم، يجب عليه أن يبحث عن السبب في نفسه، وليس بمحاولة العثور عليه في مكان آخر؛ فكما تزرع تحصد.

وعندما يتجذّر واقع الحياة هذا في ذهن إنسان ما، فإنّه لن يحمّل أيّ شخص آخرَ مسؤوليّة آلامه، وممارسة العنف ضدّهم، بل سوف يحلّل أفعاله بموضوعيّة ليكتشف بنفسه أوجُهَ القصور ويصحّح أخطاءه؛ كي لا يكون ضحيّة معاناة غير ضروريّة.

إنّ الشخص الذي ينخرط في أعمال تخريبيّة ضدّ الآخرين مستخدمًا مشكلاته ذريعة لذلك، يشبه المريض الذي يحمّل جاره المسؤولية عن مرضه، فيتقاتل معه. أمّا في المدينة التي تنحصر حركة السير فيها في الجهة اليمنى، فإنّ من المؤكد أن أيّ شخص يعتقد أن باستطاعته مخالفة هذه القاعدة بالقيادة على الجهة اليسرى سوف يتسبب في وقوع حادث سير.

من الواضح أنّ هذا الحادث يكون قد وقع بسبب اصطدام سيّارة أخرى بسيارته، ولكن، لن يكون له أيّ مبرّر للقول إنّ سائق سيّارة آخر بجروح لأنه صدم بالسيارة الأخرى سيّارته، بل يتعيّن عليه أن يعترف بأنّ سيّارته هي من اصطدمت بالآخر؛ لأنّه كان يقود على الجانب الخطأ من الشارع، في حين أنّ السائق الآخر كان يقود السيّارة على الجانب الأيمن الصحيح من الشارع.

وينطبق الشيء نفسه على الجوانب الأخرى جميعها للوجود البشريّ؛ فكلما كان عليك أن تواجه أيّ خسارة في الحياة، فيجب أن تعلم أنّ تلك الخسارة كانت بسبب قصور منك إنّ طريقة التفكير هذه تُعَدُّ سلميّة، وهي طريقة التفكير الصحيحة في شؤون الحياة. فإذا كنت تتّبع في تفكيرك هذه الطريقة الصحيحة، فستكون قادرًا على ضبط نفسك، وتصحيح أخطائك، وهذا سيؤدّي إلى إنقاذ مستقبلك. أمّا إذا كنت تأخذ المسار المعاكس تمامًا، فسوف تلقي اللوم على الآخرين بسبب مشاعرك السيئة وقت الشدّة، ومن ثمّ تتّخذ خيار العنف، وتتّبع نهج اللاسلم. وفي المُحصلة، فإنّ النتيجة ستكون تدمير مستقبلك، بعد أنْ كنت قد دمّرت فعلًا حاضرك وماضيك.

دَعْ قانون الطبيعة يأخذ مجراه

وفقًا لقانون الطبيعة في هذا العالم، فإنّ الحقيقة تدوم، في حين يكون مصير الباطل إلى زوال. وفي ضوء هذا الوضع، يكفي أنْ نتّبع سياسة الصمت لتدمير الباطل. فالجهر والحركات الاحتجاجيّة لإثارة التحريض ضدّ الباطل يمنحه حياة في الواقع، في حين أنّنا بتبنّي سياسة التجنّب نمنحه موتًا طبيعيًا.

إنّ السكوت عن الباطل يعني تجاهله، وعدم إعطاء أيّ ردّ فعل عنيف تجاهه، أو إطلاق أيّ احتجاجات ضدّه. ومعَ ذلك، فإنّ الذين يختارون مثل هذه السياسة هم الذين يدركون قوّة الطبيعة، الذين يضعون ثقتهم فيها. أمّا أولئك الذين لا يدركون هذا فإنهم يمنحون الحياة للباطل من خلال الاحتجاج والتظاهر ضده.

ينغمس الناس في الاغلب في ممارسة العنف تحت ادّعاء اجتثاث الباطل، وهذه ليست سوى حماقة؛ فليس للكذب جذور ثابتة، فهو إلى زوال. وفي مثل هذه الحالة، ليست هناك حاجة إلى العنف غير الضروريّ لمحو ذلك، ولهذا فإن اعتماد المسار السلميّ لمواجهة الباطل يعدّ خيارًا مناسبًا مثل اقتلاعه.

سياسةٌ عفا عليها الزمن

إنّ العصر الحاضر هو عصر العولمة؛ فالعالم بأسره قرية عالميّة. وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر هذه، نرى أنّ العنف أو النضال المسلّح قد اكتسب طابع المفارقة التاريخيّة، فلو سألت المشاركين في المواجهة المسلّحة عن سبب اعتمادهم هذا النهج، فإنّهم سيقولون: إنّهم فعلوا ذلك من أجل إسقاط الحكومة الحاليّة، وإنّهم يهدفون إلى بناء نظام جديد، وتحقيق هدفهم للاستيلاء على السلطة. ولكنّ كلّ هذا التفكير هونتيجة عدم إدراكهم تمامًا لروح هذا العصر.

لقد شهد هذا العصر تحوّلاتٍ عظيمةً ما جعل الاستيلاء على السلطة السياسيّة غير ضروري، وحتى من غير امتلاك السلطة السياسيّة، فإنّ الذين يهدفون إلى تغيير الأنظمة الاجتماعيّة يستطيعون إنجاز أيّ شيء يريدونه من خلال المؤسسات غير السياسيّة.

إن امتلاك وسائل الاتصـالات والتصنيع الحديثة جعلت مسألة استلام الحكـم تتراجع إلـى موضع ثانـوي ، مـع التركيـز علـى «الإدارة والتسيير» أكثر مـن التركيز على الحكـم الملكي أو حكـم اللا ملكية، وهكـذا، أصبح بالإمـكان تحقيق أي إصـلاح أو بنـاء للدول مـن دون الطموح إلـى الرفقة السياسية.

وفـي الواقـع أنّ السلطـة السياسيّـة قـد تراجعت لدرجةٍ لا تتعـدّى أن تكـون أكثـر صداعًـا لمـن يمارسونهـا. لذلـك، يجـب عليـك تـرك هـذا الصـداع للآخريـن، وأن تحـاول تحقيـق أهدافـك سلميًّا. عندئـذٍ، سوف ترى أنّك قد انتصـرت في الحرب من غيـر الدخول في معركـة، ومن غير امتـلاك السلطـة السياسيّـة، وتمكّنـت أيضًا مـن الحصول علـى الفوائد المحتملـة جميعهـا، وربما أكثـر ممّـن كانـوا سابقًـا مرتبطيـن بالسلطة السياسيّة.

العنفُ نتيجةٌ للكراهية

إنّ أحد الأسباب الرئيسة للعنف هو الكراهية، والكراهية في الأساس هي نتيجة للتفكير السلبيّ. إنّ التفكير الإيجابيّ والكراهية لا يتفقان، وبناءً على هذا، وللمحافظة على مجتمع مسالم، فمن الضروريّ ألا نتوقف عن تشجيع التفكير الإيجابيّ أبدًا. وهنا ينبغي شرح الأحداث بطريقة لا يلجأ الناس فيها إلى التفكير السلبيّ، بل على العكس من ذلـك، أن يشعروا بالحافز للتفكير بطريقة إيجابيّة.

سياسات العنف الدينيّ

إنّ السياسة العاطفيّة هي أحـد أسباب الكراهية والعنف، ولاسيّما عندما تقوم على شعار: «الدين في خطر!»، وعند تقديم صورة خطأ أو مُبالغ فيها، فإنّ بعض الكُتاب والمتحدثين يحاولون أن يعطوا انطباعًا بأنّ دينهم مهدّد من الآخرين، وقد شُنّت الآن حملة عاطفيّة وبحماسة كبيرة تحت اسم المحافظة على الدين. وبعيـدًا عن إنقاذ الدين مـن الخطر، فإنّ هـذه السياسة تهدد المجتمع كلّه من خلال تدمير السّلام.

إنّ هـذا المفهوم الذي ينصّ على أنّ الديـن في خطر يعنـي بوضوح أنّ مجتمعًا آخـرَ سيُلام على هذا الخطـر، وهذا يشجّع كراهيـة بين مجموعة لأخرى. وعندما تفشل سياسة المواجهة في وضع حدّ للخطر المفترض، فإنّ الإحباط يسود، وهذا بدوره يؤدي إلى أن يكون العنـف إستراتيجيّة مبتغاة. وأخيـرًا، عندما لا يعطـي العنف النتيجـة المرجوّة، يكون الانتحـار الخيار المرجّح.

إنّ الشّباب المشحونيـن بالعاطفة، يلجـؤون إلى التنفيس عـن الكراهية المتزايدة للعدوّ المفترض من خلال تنفيذ تفجيرات انتحاريّة، ومن ثَمّ فإنّ سياسة في خطر الدين تتحوّل في مراحلها النهائيّة تتحوّل إلى سياسة انتحار (دينيّ). وعليه، فإنّ عمليّة إطلاق تحرّكاتهم تحت غطاء إحياء الدين يبرهن على أنّ هذا هو المسمار الأخير في نعشهـم، فضلًا على غيرهم. والحقيقة هي أنّ الطريقة الوحيدة ليخلّص الإنسان نفسه من هذه السياسة التدميريّة هي بوقف العنف المرفوض في الظروف جميعها. وما من عذر يمكن أن يكون مُسَوِّغًا لاستخدام العنف مهما كبر أو صغر.

إنّ عالم اليوم هو عالم الاختلافات، فكلّ رجل إنسان مختلف، وكلّ امرأة إنسانة مختلفة. ولهذا، نجـد أنواع الاختلافات جميعها بيـن الناس. ولكن، عندما تأخذ هذه الاختلافات منحًى عاطفيًـا، فإنّها تقود الناس إلى سلوك الحقد ما يجعل العنف يعصف بالمجتمع كله.

ليس هناك سوى حلّ واحد ممكن لهذه المشكلة، وهو غرس فكرة أنّ على أفراد المجتمع جميعهم العمل ضمن إطار سلميّ، بغضّ النظر عن الظروف المحيطة بهم.

وعليهم، وتحت أيّ ظرف من الظروف، ألا يصبحوا خارج مضمار السّلام؛ فالعقليّة الصحيحة لا يمكن تكوينها إلا إذا أدرك الناس حقيقة أنّه في هذا العالم لا يمكن تنفيذ أيّ مهمة إلا من خلال السّلام، ولا يمكن إنجاز أيّ مَهَمَّة بنجاح من خلال العنف؛ لأنّ العنف لا يسهم إلا في التدمير وليس البناء، فلا يوجد دين في خطر أبدًا، فالدين الذي يبدو أنّه في خطر ليس بدين بتاتًا.

من الانتقام إلى العنف

كثيرًا ما يحدث أنّه إذا تـأذّى شخص على يد آخـر، أو مجموعة على يد أخرى؛ فإنّ الانتقام يصبح هو الهدف المباشـر، لكن الذين يصممون على الانتقام يميلون إلى نسيان تحذير التاريخ - التحذير المكتوب على كلّ جدار بلغة صامتة: فكّر قبل السعي إلى الانتقام؛ لأنّ الانتقام يقابله انتقام. وبهذه الطريقة، تبدأ سلسلة من أعمال العنف بالتشكل والتراكم ولا تنتهي إلا بعد استنفاد كلا الجانبين لطاقاتهما ومواردهمـا، أي الحد الذي يجعلهما غير قادرين على التحكم بهذا الانتقام.

عندما يكون لأيّ فرد أو جماعة أيّ سبب للشكـوى، فإنّ الحلّ لا يكمن في الأعمال الانتقاميّة، بل في الاستمرار في التحرّك إلى الأمام، عن طريق تبنّي سياسة تقوم على تجنّب الصراع. إنّ مثل هذا التجنّب يضع حدًّا لهذه المشكلة من بدايتها، في حين يؤدّي رفض تجاهل المشكلة إلـى ردّ فعل متسلسل ولا نهاية له من الانتقام والكراهية والعنف. ومن ثَمّ، فإنّ سياسة تجنّب الصراع هي طريق محبّي السّلام، في حين أنّ الانتقام هو طريق العنف.

إنّ الانتقام موجّه نحو الآخر دائمًا، ولكـن المتضرر الأكبر فعليًّا هو الذي يختار نهج العنف بداية، والثمن الباهظ الـذي يدفعه لسياسة الانتقام هذه هو أنّ عقله يصبح مَخزنًا للتفكير السلبيّ، وهنا، وبدلًا من استهلاك موارده في بناء حياته، فإنّه يبدأ بتبديدها على تدمير الآخرين.

فلو قلنا: إنّ أحد الخصوم جعله لصرف ما يصل إلى خمسين بالمئة من طاقاته وموارده وما إلى ذلك، فإنّه شخصيًّا، ونتيجـة لسياسته الانتقاميّة، سيبدّر الخمسين بالمئة الأخرى.

وإذا ما نظرنا إليه من منظور نهايته المنطقية، فإنّ الانتقام يعني ببساطة أن أي شخص بعد تعرضه لمحاولة لقتل فإنـه قد يلجأ إلى أسلوب قد يؤدي في النهاية إلى موته، والحقيقة هي أنّ الانتقام شرّ بحد ذاته بغضّ النظر عن الظروف، أمّا الامتناع عن الانتقام عن طريق تجاهله فهو فضيلة في الظروف كافة. وإذا كان من يطالب بالانتقام عدوّك، فإنك وبردّ الانتقام بمثله تصبح عدوّ نفسك، والذين يتحوّلون إلى أعداء أنفسهم لا يمكن إنقاذهم من الدمار من قِبَل أيٍّ كان.

صيغة للسلام الاجتماعيّ

السّلام فطرة بشرية ولا يختل السّلام فـي أيّ مجتمع إلا عندما يؤدي أيّ عمل عنيف إلى حرف الإنسان عن طبيعته. والحقيقة هي أنّ «الأنا» موجودة داخل كلّ واحد منّا، وهي حالة عقلية، التي لا تلبث إذا ما استُفزَّت أن تشتعل وتنشر الخراب والدمار. ولكن بحكم طبيعتها، ووَفقًا لنظام الخلق، فإن هذه «الأنا» عمومًا تظل في حالة سكون. وعلى هـذا، فإنّ أسهل طريقة للحصول على مجتمع سلميّ هو بعدم إزعاج هذه الأنـا. إنّ السّلام الاجتماعيّ يعكّره أولئك الذين استُفزَّت «الأنا» فيهم، فإذا امتنعنا عن مثل هذا الاستفزاز، فلن يكون هناك إزعاج للسلام الاجتماعيّ.

إنّ هـذا يـدلّ علـى أنّ إرسـاء السّـلام الاجتماعـيّ وحمايتـه أمـر في حدود سيطرتنا، وليس تحت رحمة العناصر المعاديـة للمجتمع. وهذا يدلّ بدوره على أنّك إذا لم تستفزّ (أنا) الآخرين، فسوف تكون بالتأكيد في مأمن من عنفهم.

إنّ حيـازة الأسلحـة لا يحقق ضمانـة للأمـن الاجتماعيّ؛ فمبـدأ الأمن الاجتماعيّ هو في أنْ تصبح جارًا من أجل الآخرين محبًّا للسلام. إنّك بعدم ارتكاب أيّ عنـف ضدّهم، ستصبـح بالتأكيد، في مأمن مـن الشرّ والعنف منهم، وبكرهك للآخرين فإنّـك سوف تتلقى الكراهية منهـم في المقابل. أمّا إذا كانت لديك مشاعر الحبّ والنيّات الحسنـة تجاهم، فإنك سوف تتلقى المشاعر نفسها منهم، وبذا فإنك في هذا العالم ستتلقّى السّلام مقابل السّلام، والعنف مقابل العنف.

الإرهاب - سلوك همجيّ

إنّ شرّ الإرهاب قد أصبح فتنةَ الوقت الحاضر، وهو مُدان على نطاق واسع، ولكنّ ماهيّة الإرهاب لم تُعرّف حتى الآن بوضوح. لقد توصّلتُ بعد قدر كبير من التفكير في هـذا الموضوع إلى الاستنتاج بأنّ الإرهـاب يُعرّف بأنّه عمل مسلّح تقوم به منظمات غير حكوميّة. وبالتأكيد، فإنّ للعامّة الحقّ في التعبير عن وجهة نظرهم على نحو سلميّ، ولكنّهم لا يملكون الحقّ قطعيًّا بالمشاركة في عمليات متلاحقـة عن طريـق الحـركات المسلّحة، لأن هـذه الحريات تتناقض مـع كلّ القيم المرعية محليًّـا وعالميًّا. إنّ ما يعـرف بالإرهاب في الوقت الحاضر ما هو إلا نتيجة للعمل المسلّح من قِبل منظّمات غير حكوميّة.

إضافة إلى ذلـك، لا يمكن شـنّ الحرب إلا عـن طريق حكومـة شرعيّة، وحتى الحكومات الشرعيّة، فإنّ هناك عددًا من الشروط الضروريّة لإطلاق الحملات المسلّحة. مثلًا، يمكن لهـذه الحكومات أن تخوض معركة دفاعيّة فقط، ولا يمكنهـا أن تبدأ العدوان. وبالمثل، فإنّ الحـرب الشرعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلان رسميّ للحرب، فلا مجال لحرب غير مُعلنة في مجتمع متحضّر، ثمّ إنّه حتى في معركة دفاعيّة قانونيّة يجب على الحكومة أنْ تصدر الأوامر الصارمة بعدم التعرّض للمدنيين؛ لأن قتل غير المسلّحين أو إصابتهم يُعَدّ عملًا غيرَ قانونيّ حتى في حالة الحرب.

ووفقًا للمبادئ الإنسانيّة المعمـول بها، فإنّ شكلًا واحـدًا فقط من أنواع الحرب يُعَدّ مقبولًا؛ إنها الحرب التي لا يمكن تجنّبها دفاعًا عن النفس، أمّا أيّ نوع آخرَ من الحروب، من مثل: الحرب العدوانيّة، والحرب بالوكالة، وحرب

العصابات، والحرب غير المعلنـة، فتُعَدُّ حروبًا غير قانونيّـة وَفقًا للمبادئ الدوليّة، ولا يمكن وصف هذه الحروب بأنها شرعية تحت أي ذريعة كانت.

وَوَفقًا للتعريف أعلاه، فإنّ أيّ حركة تبنى على الإرهاب تُعَدّ بالتأكيد غير قانونيّة. ولا يمكن تبريرها ببساطة بإعطائها أسمـاء رنّانة. وعليه، فإنّ أيّ محاولة لتحقيق أهداف الإنسان عن طريـق الانخراط في الإرهاب بدلًا من استخدام الوسائل القانونيّة اللازمة لذلك، هو انتهاك للحدود كلّها.

ولذلك، لابدّ مـن إنهاء الإرهاب فـي العصر الحديث، لكـن هذا لا يمكن أن يتمّ من خـلال الهجمات المضادة، ويعـود ذلك إلى سببيـن: أمّا أوّلهما فلأنّ ذلك سيكون أشبه بمحاولة قمع الإرهاب غير الرسمي من خلال إرهاب الدولة، وأمّا ثانيهما فلأنّ الإرهاب الحديث يستمدّ قوّته من عقيدته أكثر ممّا يستمدّها من البنادق والقنابل. ولهذا السبب، فـإنّ عقيدة مضادّة بدلًا من التفجيرات المضادّة ستكون أكثر فعاليّة لوضع حدّ للإرهاب.

إن العقيدة التي يلتـزم بها الإرهابيون تجعلهم يؤمنـون بأنهم بموتهم في المعركة سيصبحون شهداء، وبهذا سيحصلون على حياة جديدة في الجنة أفضل بكثير من الحياة الدنيا.

إنّ هذا الاعتقاد هو الذي جعل من التفجيراتِ الانتحاريّة مسوّغًا مقبولًا في نظرهم فبناء على ذلك، فإن أعمال العنف التي يقومون بها لن تتوقف إلا بعد أن يثبت لهم من خلال عقيدة مضادة أن عقيدتهم لا أساس لها من الصحة.

إضافة إلى ذلك، ينبغي معرفـة أنّ الإرهابيين المعاصرين، وأكثرهم من جيل الشباب اليافع، لن يكونوا قادرين على مواصلة أعمالهم من غير الدّعم النقدي الواسع النطاق، والتعاطف الشعبيّ ووضعهم بأنهم أبطال، وهذا كلّه

يتلقّونه من غير (المقاتلين السلبييـن)، أي من غير المشاركين في أنشطة وأعمال عنيفة.

إنّ المتشددين السلبيين هم، إذا جاز التعبير، خطّ الإرهاب الثاني، ودورهم مهمّ؛ وذلك بتوفير البنية التحتيّة والتمويـن اللازمين. ولا يمكن شنّ حرب بنجاح إلا إذا استمرّت خطوط الإمداد بتقديم المتطلبات العسكريّة جميعها منقوصة مـن دون أيّ انقطاع، وإذا حدث أن انقطعت تلـك الإمدادات، فإنّ الحرب ستتوقـف تلقائيًا، مثلما قد يموت إنسان عنـد قطع الأكسجين عنه. ولكنّ، وعلى نحو عقـديّ، فـإنّ المتشددين السلبيين يـزون أن من واجبهم تقديم المساعدة الكاملة للإرهابيين النشيطين. وإذا كان عدد الإرهابيين بالآلاف، فإنّ عدد المؤيدين يصل إلى الملاييـن، ومادام الأمر كذلك، فإنّ إبادة الإرهابيين الناشطين المعروفين لا تكف لوضع حدّ لظاهرة الإرهاب.

إذن، لابدّ من التصدّي لمسألة الدعم الهائل المقدّم من جميع أنحاء العالم من الإرهابيين السلبيين على الفور، ولابدّ من تغيير عقولهم وتحويل تفكيرهم المتعلق بالعنف إلى تفكير مسالم. حينئذ فقط، سيكون من الممكن تخليص العالم من خطر الإرهاب.

الفصل الرابع: القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن

يُعدُّ الأسلوب السلميّ من وجهة نظر معيّنة اسمًا آخرُ لحالة القبول بالوضع الراهن، فحالة القبول بالوضع الراهن لشخص محبّ للسلام ليست شكلًا من التراخي أو اللافعل، بل هي خطّة عمل إيجابيّة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى؛ أي إنّ فحبّ السّلام يقبل بالوضع الراهن لإبعاد نفسه عن نقطة المواجهة إلى ميادين أخرى؛ حيث يمكن له المضيّ قُدُمًا في العمل البنّاء. وبدلًا من التورّط في المشكلات، فإنّه يتطلع إلى المستقبل يوجه طاقاته من أجل الإفادة من الفرص المتاحة. ولهذا السبب، فإنّ حالة الرضا بالأمر الواقع لشخص محبّ للسلام هي حقًّا قبول إيجابيّ للوضع الراهن.

وفي عالم المصالح المتضاربة، فإنّ حالة القبول الإيجابيّ للوضع الراهن هي القاعدة المثلى لتصوّر مشروعـات بنّاءة وتنفيذهـا. إنّ تبني مثل هذه الحالة قد يتطلب توافـر فضائل خاصّة، مثل البصيـرة وبعد النظر، فضلًا على المقدرة العالية على التخطيط. ومن ثَمّ فهي تؤدّي إلى فائدة مزدوجة: أولًا، عدم الاخلال بالسّلام، وثانيًا، ضمان للنجاح في نهاية المطاف. ويمكن تلخيص هذه الصيغة كما بالآتي: تجنّب المواجهة، واعتماد النشاط السلميّ.

الورود وأشواكها

كما في عالمنا ورود، هناك أشواك أيضًا. ولذلك، فإنّها خبرة عامّة لكلّ من يريد المشاركة في أيّ نشاط إيجابيّ أن يدرك بأنّ هناك عقباتٍ في طريقه،

وربّما بسبب قانون الطبيعة تحديدًا، وهذا ينطبق على الفرد، وكذلك على الأمّة بأسرها. إنّ إحدى الطرائق لمعالجة مثل هذا الوضع عنده هو البدء في إزالة العقبات الموجودة في طريقه جميعها، ومن ثَمّ يبدأ العمل على إنجاز هدفه. وتعرف هذه الطريقة عمومًا بالتطرّف (الراديكاليّة).

إنّ الراديكاليّة مغرية جدًا للمتطرفين، أو إلى أولئك الذين تقودهم عواطفهم، ولكنّها غير عمليّة من حيث تحقيق أي هدف إيجابي وفي الوقت الذي قد تستخدم فيه الراديكالية على نحو فاعل لأغراض التدمير، فإنها تصبح عبثية أكثر وغير مجدية عندما يتعلق الأمر بالبناء. وحالما يُختار طريق التطرّف، فإنّ النظام السائد لن ينهار فحسب، بل، وبسبب الأعمال التدميريّة، ستتهاوى أيضًا التقاليد الاجتماعيّة كلّها التي استمرّ بناؤها قرونًا طويلة. ونتيجة لسفك الدماء والمواجهة العنيفة، فإنّ عددًا لا يحصى من الناس سيقعون ضحيّة لمختلف أنواع الآلام والمصائب. ومع أن الخبرة تظهر أنّ أسلوب التطرّف يكون جذّابًا من الجانب النظريّ الفكريّ، إلا أنه من حيث النتائج العملية يخلو من أي مزية إيجابية.

الأسلوب الآخر يكون بتجنّب المواجهة معَ الوضع الراهن، ووضع خطّة للأعمال المحتملة ضمن المجالات الممكنة. وبالقبول المؤقت بالوضع الراهن، فإنّه يمكن اغتنام الفرص الحاليّة، وهذا هو التقبّل الإيجابيّ للوضع الراهن الذي أشرت إليه سابقًا في هذا الفصل.

إنّ طريق التطرّف تنتج العنف دائمًا، وعلى العكس من ذلك، فإنّ التقبّل الإيجابي للوضع الراهن يحقق هدفه عن طريق المحافظة على السّلام في المجتمع.

ومع أن الأول يؤدّي دائمًا إلى تفاقم المشكلة، فإنّ الثاني، يسير بطريقة سلسة، عن طريق تجنّب الاحتكاك، من غير التسبّب في أيّ مشكلات. فلو كانت الطريق الأولى هي طريق الانحراف، فإنّ الثانية هي طريق البناء.

سياسة فك الارتباط

أيضًا، يمكن تعريف القبول بالوضع الراهن على أنّه سياسة فكّ ارتباط، وهذا يستلزم إيجاد السبل للعمل السلميّ على الرّغم من وجود الخلافات، ما يعني أنّه، وبغضّ النظر عن وجود حالة صراع على المصالح، وعلى الرغم من الظروف غير المواتية، فإنّ مثل هذه الإستراتيجيّات يجب تبنّيها، وهذا قد يحول دون شنّ الحرب، ويعمل على إيقاف وقوع أعمال العنف. لذا يجب وضع القضايا الجدليّة جانبًا حتى يمكن اغتنام الفرص المتوافرة في جوّ سلميّ. وباتّباع هذه السياسة، فإنّنا نحقق مكسبين في وقت واحد: الأول، إحلال السّلام على الرغم من الأجواء الكريهة الناجمة عن الخلافات، والآخر، الإفادة المثلى من فرص العمل على الرّغم من وجود مشكلات. إنّ واحدة من الفوائد الكبيرة لسياسة الفصل -من حيثُ إنّها الصيغة الطبيعيّة الأكثر نجاحًا لإرساء السّلام- هي أنّ الظروف التي تؤدّي إلى إجراءات تعتمد على النتائج لم تَعُدْ مسألة من الماضي، لكنّها أصبحت حقيقة اليوم.

أوجه التفكير الإيجابيّ

إن القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هو، الإستراتيجيّة الأكثر نجاحًا لبناء حياة سلميّة، ومعَ هذا، فإنّ الشرط الضروريّ للاستثمار هذه الإستراتيجيّة هو أن يكوّن الانسان نوعًا من الاتجاه الإيجابيّ الذي سيمكّنه من الارتقاء فوق

ظروفه. وحتى في أكثر الحالات السلبيّـة، فإنّه ينبغي له أن يكون قادرًا على مواجهة العواصف كلها، كما تفعل الطيور الكبيرة مـعَ العاصفة، وينبغي ألا يكون تفكيره مرتبطًا بشروط مسبقة، بل عليه أن يفكّر في أفعاله، ويخطط لها من دون أيّ تميز أو تحامل.

إنّ إحدى العقبات التي تحول دون القبـول الإيجابيّ بالوضع الراهن، هي الميل إلى إفساح المجال للغضب، والرّغبة في الانتقام؛ لأنّ مثل هذا الموقف يسمّم عقل الإنسان، بحيث لا يعود قادرًا على التفكير بموضوعية. إنّ غياب الموضوعيّة هذا هو السبب الرئيس للفشل في اتخاذ موقف إيجابيّ.

الغضب ضعف

إنّ الغضب قاتل السّلام؛ فهو يؤدّي في كثير من الأحيان إلى العنف، وإطلاق العِنان للغضب هـو علامة ضعف، في حيـن أنّ السيطرة عليـه علامة قوّة. إضافة إلى ذلك، فإنّ الغضب يربك قـدرة الإنسان على التفكير؛ فلا يمكن للرّجل الغاضب فهم أيّ قضية بطريقة واضحة صحيحة، ولا يمكن أن يتجاوب معَ الوضع بطريقة كافية مناسبة. والأسوأ من هذا أنّ الإنسان عندما يكون غاضبًا فإنّه يكون ميّـالًا إلى العنف. والحقيقة هـي أنّ العنف ليس حلًّا لأيّ مشكلة، ومن يستطيع أن يمنع نفسه من الخضوع للغضب، فإنّه سيتمكّن من جعل أيّ موقف يواجهه في مصلحته عن طريـق السعي إلى حلّ سلميّ، وهو السبيل الوحيد والمؤكّد لحلّ أيّ مشكلة كانت.

إنّ للعقل البشريّ قدرات غيرَ عاديّة؛ فعندما لا يكون غاضبًا، فإنّه يستطيع توجيه قدراته للحصول على أفضل النتائج، ولكن عندما يكون غاضبًا، فإنّه يفقد توازنه العقليّ، ولا يكون في وضع يسمح له بالاستخدام الكامل لقدراته

العقليّة لمصلحته. وباختصار، فإنّ الإنسان ينتصر عندما لا يغضب، وينهزم عندما يغضب.ولا يجب أن يغيب عن البال أيضًا أنّ التغلّب على الغضب ليس مجرّد مسألة كبت للعواطف، بل هو القدرة على التعامل معَ المشكلة عن طريق التسامي على سلبيّة الغضب.

على المرء أن يكـون قادرًا على الـرد، غير متأثر بالعواطـف على الرغم من الاستفزاز. وهذا لا ينطبق على الفرد فقـط، وإنّما على الأمة كاملة. إنّ القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هو بلا شكّ أضمن طريقة لتحقيق النجاح، وأولئك الذين يتبنّون هذه الطريقة فقط هم الذين لديهم القدرة على التفكير المستقلّ بعيدًا عن سيكولوجية الغضب.

ولايمكـن تبنـيّ مبـدأ القبـول الإيجابـيّ بالوضـع الراهـن إلا الذيـن يتمتعـون بانضبـاط عقلـي بعـدم اللجـوء إلـى العنـف، علـى الرغـم من مواجهتهـم مواقـفَ غيـر سـارّة. أمّـا الذيـن لا يستطيعـون كبـح ميولهم العنيفة، فلـن يكونوا قادرين علـى معرفة فوائـد القبول الإيجابـيّ بالوضع الراهن.

أسلوب اللاعنف

إنّ أحد قوانين الطبيعة هـو أنّ اللاعنف قضيّة موجّهـة لتحقيق النتائج، في حين أنّ العنف موجه للإحداث الدمار. لذلك، إذا كان الفرد قد حصر أنشطته في مجال الرفق واللاعنف، فإنّ عمله سوف يسفر عن نتائج جيّدة، في حين أنّ الشخص الذي يختار طريق العنف والتعصّب يتقهقر إلى الوراء بدلًا من التقدّم إلى الأمام.

وممّا لا شك فيه هو أنّ أيّ شخص يختار طريق التعصّب والعنف، فإنّ طاقاته سوف تنقسم من غير مبرّر بين جبهتين: البناء الداخليّ ومحاربة عدوّ خارجيّ، في حين أنّ الشخص الذي اختار الدماثة واللاعنف يمكن أنْ يكرّس طاقته المُتاحة وموارده كلها نحو جبهة واحدة فقط، هي التماسك الداخلي. نتيجة طبيعيّة لذلك سيتمكّن من تحقيق أقصى درجات النجاح.

هذا هو قانون الطبيعة العامل في عالمنا. فإذا كان على أحدهم أنْ يحقّق أيّ هدف جليل، فكلّ ما عليه عمله فقط هو الالتزام بالنظام الطبيعي هذا؛ المستند كليًّا إلى مبدأ السّلام وعدم اللجوء إلى العنف. وبهذا ينجح من خلال الالتزام بهذا القانون، ويفشل في حال الانحراف عنه. لذا، فإنّ الأعمال غير العنيفة يمكن مساواتها بحالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن.

فوائد السّلام

إنّها لحقيقة أنّ المآثر والأعمال البطوليّة جميعها قد أُنجزت في هذا العالم بمساعٍ سلميّة، ولم تُنْجز أيّ مَهَمَّة نبيلة باستخدام قوّة العنف. وهذا ينطبق على الاكتشافات والتقدّم التقني؛ فلا المؤسّسات التعليميّة، ولا معاهد البحوث كانت قد أُنشئت عن طريق وسائل عنيفة، حتى إنّ تحويل الحديد إلى آلات، وتخطيط المدن الرئيسة قد تمّ كلّه بقوّة السّلام، لا العنف. وبدءًا من ضمان الرعاية الاجتماعيّة وإنشاء البنية التحتيّة، فقد أنجزت الإجراءات التقدمية عن طريق إستراتيجيّات سلميّة.

إنّ العنف في حدّ ذاته مدمّر، ولا يمكن تحقيق أيّ إعمار بإنتاج الدمار. وهذا هو قانون الطبيعة الذي لا يتغير.

حلّ مشكلة العداوة

يتمسّك بعض الأفراد بفكرة أنّ مجتمعًا ما أو أمّة ما بعينها عدوّ لهم، ومن ثَمّ، تصبح فكرة العدائيّة هي السبب والمبرر لاتخاذ طريق العنف، وعندئذٍ يتّخذون موقفًا عدوانيًّا، علنًا أو سرًّا؛ بحجّة وضع حدّ للعداوة. لكن هذه مبنية على فهم خاطئ خطة عمل مثل أي خطة أخرى تبنى على افتراض أنّ الحرب يمكن أنْ تكون هي الحلّ.

إنّهم يفشلون في إدراك أنّ أفضل حلّ لمشكلة العداء تكمن في القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن، وهذا يُسهّل التعامل السلميّ مَعَ العدوّ. إنّ هذا ممكن لأنّ حالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هي حالة نفسيّة تُمكّننا من التعامل مَعَ العدوّ بطريقة هادئة، ما يجعل العداء نفسه يختفي إلى الأبد.

إن من الضروري أن نَعُدّ الأعداء جزءًا هامشًا في حياتنا بدلًا من عدّهم جزءًا لا يتجزأ من وجودنا، وينبغي أنْ نعترف بأنّ العدائيّة لأيّ عدوّ يمكن أنْ تنتهي باتّباع إستراتيجيّة إيجابيّة. ويمكننا تشبيه العدوّ بالغبار الملتصق على الزّجاج. إن مثل هذا الغبار يمكن غسله بسهولة بالماء، المشكلة الحقيقيّة ليست في غياب الماء (أي الإستراتيجيّة الإيجابيّة) لغسل الغبار.

يتطلّب التصفيق وجود يدين اثنتين؛ إذ إنّ يدًا واحدة لا تستطيع التصفيق بمفردها. وبالمثل، فإنّ العداوة مسألة ذات وجهين؛ فإذا أصبح شخص ما عدوّك، فعليك ألا تردّ على هذا العداء بمثله. إنّ المثل بالمثل فيما يتعلّق بالعداء ليس بالحلّ الأكثر نجاحًا للمشكلة. وبذا، فإنّ تبنّي سلوك إيجابيّ تجاه العدوّ يمكن أنْ يسفر عن نتائج مفيدة، منها أنّ عدوّك السابق يمكن أن يكون صديقك يومًا ما.

العنف نتيجة للإحباط

تتمثل إحدى حسنات القبول الإيجابيّ للوضع الراهن في أنّه يجنبنا الآثار الفتّاكة الناجمة عن الإحباط، الذي يأتي من الشعور بالحرمان. وعليه، فإنّ آفاقًا مشرقة تكون واضحة في الحالات جميعها، على الرغم من أنها قد تبدو غير مواتية. وتكمن الفائدة العظمى لحالـة القبول الإيجابيّ للوضع الراهن في أنّها تمدّ البشر بشجاعة فائقة؛ فهي تحميهم في الحالات جميعها من أن يصبحوا فاقدي الأمل بسبب الأبواب المغلقة في وجوههم، فيفشلوا في تحديد نهج للاستمرار في حياتهم.

إنّ العنف ينبع مـن الشعور بالحرمان، في حين ينبـع السّلام من الشعور بالاكتشاف. فأولئك الذين تأصّلـت لديهم فكرة أنّهم حرموا ما هو حقّ لهم يعانون دائمًا حالةً نفسيّة سلبيّة، وهذه السلبيّة غالبًا ما تتّخذ شكلًا من أشكال العنف. ولكنّ أولئك الذين يعيشون معَ شعور إيجابيّ بأنّهم قد خاضوا شعور الاكتشاف، فإنّهم يتمتّعون بالسّلام الذهنيّ، وتبقى حياتهم سلميّة إلى الأبد.

ثبت الأفراد أو الجماعات الذين يشعرون بالكراهية نحو الآخرين، ويلجؤون إلى العنف فـي تعاملهم معَهـم، بسلوكهم هـذا أنّ مظالمهـم مُستمدَّة من إحساسهم بالحرمان. وعلى النقيض من ذلك، الأفراد أو الجماعات الذين ينتهجون حياة سلميّة بسلوكاتهـم أنّهم استطاعوا العثـور على ما يطمحون إليه في الحياة، لكنّ ذهن الشخص المحبط يكون مهووسًا دائمًا بالأوضاع السائدة، في حين أنّ الشخص المتحرر من نفسية الإحباط يكون قادرًا على التفكير من خلال الارتقاء فـوق الظروف الحالية. ومن ثَـمّ، فإنّ الشخص

المحبط هو شخص متوجّه للحاضر، أما الشخص المتحرر من الإحباط فهو شخص متوجّه نحو المستقبل.

العنف غير ضروري

يتعارض العنف الاجتماعيّ مع طبيعة الإنسان الحقيقيّة. فالعنف، الأعظم بين الجرائم كلّها، قاتل للإنسانيّة، ومع ذلك يبرز هذا السؤال: لماذا ينجرف الناس نحو العنف؟ السبب هو أنّهم يضعون فـي الحسبان الظروف الحاليّة فقط، يستطيعون رؤيـة الآفاق المستقبليّة. ثمّ إنّ مثـل هؤلاء الناس يجدون ما يسمّى بالمسوِّغات لممارستهم العنف، ويبدو لهم أنّ التسويغ يستند إلى حجّة منطقيّة، ولكن حججهم، في الواقع الفعليّ، ليست إلا مغالطات واهية. وفي استخفافهم بالآراء العقلانيّة كلها فإنّهم يلتزمون بفكرة أنّ - في حالة مخصوصة بهم، وللسبب كذا وكـذا- انخراطهم في العنـف أصبح مُسوَّغًا أخلاقيًّا.

ولكنّ الحقيقة هي أنّ ما يُسمّى تسويغًا للعنف هو شيء غير مقبول. فعندما يشارك فرد أو مجموعة في أعمال عنف، يكون لديهم في آن واحد وفي الوقت نفسه خيار الطريقة السلميّة غير العنيفة. وإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ اللجوء إلى العنـف أصلًا؟ فعندمـا تتوافر فرصـة تحقيق الهدف مـن غير اللجوء إلى العنف، فلماذا يتبنّى الجميع الأساليـب العنيفة؟ الحقيقة هي أنّه يجب التخلّص من العنف من حيثُ المبدأ عن طريق تجاهله، ويجب اعتماد السّلام دائمًا. ولذلك، لا ينبغي انخراط الفرد في العنف تحت أيّ ذريعة كانت، ولابدّ له من الالتزام بالنهج السلميّ في المواقف كلّها.

الصبّر سرّ النجاح

يتمثل أحد عناصر القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن في سياسة (انتظر وشاهد). وهذا يعني أنّ كلّ ما يستطيع الإنسان فعله وبسهولة في الوقت الحاضر، لابدّ من إنجازه، في حين يؤجّل عمل كلّ ما يشعر بأنّه يحمل معه مشكلاتٍ كثيرة إلى وقت آخرَ تكون فيه الظروف أفضل.

غالبًا ما يحدث أن الإنسان حين تواجهه المشكلات والتحدّيات الصعبة والتجارب المريرة، وفي محاولة للخروج من السخط الهائل، فإنّه يلجأ إلى العنف، لكنّ هذا النوع من ردّ الفعل هو نتيجة الانحراف عن الطبيعة. فالحقيقة هي أنّ قانون الطبيعة يفضّل دائمًا أولئك الذين يتبنّون المسار الواقعيّ. فإذا كان مثل هؤلاء الأفراد أو الجماعات الذين يقفون إلى جانب الحقيقة والعدالة لا يتصرّفون بسلوك متهوّر، ويلازمون الصبر، فإنّ الظروف المواتية ستأتي في نهاية المطاف لتخبرهم بأنّ النجاح سوف يأتيهم طوعًا.

وفي معظم الحالات، فإنّ الفشل ينتظر أولئك الذين لا يطيقون صبرًا؛ لأنّهم يتصرّفون بعاطفيّة من غير التفكير في التداعيات المحتملة. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الذين يختارون طريق الصبر يكون مصيرُهم النجاح.

وعندما يسلك الفرد طريق الصبر، فإنّه يتّبع مسار الطبيعة، أمّا عندما يعتمد مسار قلّة الصبر، فإنّه ينحرف عن مسار الطبيعة. ومن ينحرف عن مسار الطبيعة فلا توجد لديه احتمالات للنجاح في عالم الله تعالى هذا.

سياسة موجّهة نحو المستقبل

بعبارة أخرى، يمكن التفكير في القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن على أنه شكل من أشكال البصيرة. فهو بوصفه طريقة يسير وَفقًا للقانون الطبيعيّ (انتظر وشاهد). هناك أوقات يجد كلّ فرد ومجتمع نفسه في نوع من المواقف التي يشعر فيه أنّه أمام بعض العقبات التي تمنعه من إحراز أيّ تقدّم. وفي مثل هذه الحالات، فإنّ معظم الناس يعدّون مثل هذه الظروف الصعبة ظروفًا دائمة، فيبدؤون الصراع معَها من أجل إزالتها. إنّ صراعًا من هذا النوع يثبت دائمًا أنّه بلا جدوى، إنّه فقط يجعل الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. لذا، ينبغي أن نتذكّر أنّ الظروف الصعبة غير دائمة هنا، فهي ذات طبيعة زائلة. وبناء على ذلك، فإنّ الحلّ السهل لهذه المشكلة يكمن في تجاهل ذلك، بدلًا من شنّ الحرب على الظروف. إنّ هذه السياسة ستحافظ على السّلام الذهنيّ للإنسان، وأيًّا كان ما لا يستطيع الحصول عليه الآن، فسوف يأتي الوقت الذي سيصبح متاحًا له. من الملاحظ أن الإنسان عندما يواجه مشكلة ما، فإنّه يريد حلّها من غير أيّ تأخير. ومن هنا يبتدئ المسار غير الصحيح؛ فلو استطاع وضع مشكلاته جانبًا ولو مدّة قصيرة، فإنّه سيجد أنّ الحلول تقدّم نفسها من غير الحاجة إلى قتال الظروف، أو المواجهة معَ الخصوم، فمشكلاته لن تستمرّ إلى أجل غير مسمّى. وفي معظم الحالات، فإنّ العنف يحدث فقط بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ في الحياة اليوميّة.

تجنُّب الخلاف

بلا ريب، يُعَدُّ القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن ضمانًا للنجاح. لكنّ الالتزام به لا يكون ممكنًا إلا لمن يملك القدرة على الامتناع عن سياسة المواجهة، على الرغم من الاستفزاز، ومن لا يشارك في الانتقام تحت أيّ ذريعة.

إنّ مواصلة الحيـاة عن طريق تجنّـب المواجهة هو سـرّ النجاح؛ فتجنّب الخلاف يغني عدم إعطاء أيّ فرصة للآخرين لإحداث احتكاك؛ بمعنى كلّما ظهرت خلافات بين طرف وآخرَ، فإنّ التسوية بينهما يجب أنْ تقتصر على أجواء التفاوض السلميّ. ولاينبغي أن تتطوّر الخلافات إلى المواجهة الفعليّة بين الطرفين.

في كثير من الأحيان، غالبًا مـا يحدث في هذا العالـم أنْ ينشأ توتّر بين دولتيـن، وهذا التوتّـر في حدّ ذاتـه شيء طبيعـيّ لا مفرّ منـه، مهما كانت الأوضاع. ولكنْ مـا هو جدير حقًّا بالاهتمـام هو أنّه لا ينبغـي السماح بهذا التصعيد إلى أجل غير مسمّى.

ما معنى أن تبقـى الاختلافات ضمن الحـدود؟ إنّ ما يعنيـه ذلك هو أن تقتصر تلك الخلافـات على المجال السلميّ، فعندمـا تصل الخلافات إلى المرحلة الفعليّـة في الصدام والعنـف، تكون الحدود جميعهـا قد انُتهكت. باعتقـادي أن لا عيب فـي إبقاء الاختلافـات ضمن حـدود، والخطأ هو في تخطي حدود اللباقة الطبيعيّة جميعها. إن من الضروري على من يرغب في متابعة هدف جديّ بنجاح، أن يطرح النقـاط المرتبطة بهدفه جميعها على بساط البحث، أما مناقشة أيّ شيء آخرَ غير الهـدف الفعليّ فهو لعنة على كلّ صاحب مَهَمَّة.

ولكن، كيف يمكـن تأسيس جوّ من الحـوار في أجواء غيـر تصادميّة بين المتكلّم والمُخاطَب؟ الجـواب هو أنّ هذه الأجواء يمكـن إيجادها فقط من جانب واحد عن طريق التحلّي بالصبر من صاحـب الهدف الإيجابيّ. ومن الناحية العمليّة، لا توجد وسيلة أخرى ممكنة لذلك. فعلى الإنسان الهادف، بتجنّبه الاحتكاك، المحافظة على جوّ طبيعيّ بينه وبين الخصوم المحتملين، بحيث تمضي رحلته قُدُمًا من غير عوائق، إنّ مثل هذه الحكمة هي التي توفر الأساس السليم لحالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن.

الفصل الخامس: معارضة سُنَّة الخلق

إنّ الاقتناع بفكرة أنّ العنف مبدأ قابل للتنفيذ لتحقيق الأهداف الشخصية، ومن ثَمّ إطلاق العِنان للنفس بممارسة العنف، هما أمران ضدّ سنّة الخلق، فلا المفهوم ولا الأفعال الناجمة عن ذلك تتفق معَ السّنّة الإلهيّة للخلق، وهذا هو السبب الذي يجعل العنـف لا يؤدي إلى أيّ نتائج جيّـدة، أو أن يخدم أيّ غاية ما عدا الدمار.

فلو أنّ مزارعًا كانت لديه قطعة أرض خصبة، فإنّه يستطيع زراعة كميّات وافرة من المحاصيل، ولكنْ هذا لن ينجح إلا إذا اتّبع طريقة مناسبة تنسجم معَ الطبيعة. ولكـن، إذا ابتدأ، ومن غير تفكير، برشـق الحجارة أو إسقاط القنابل على حقله، فإنّه لن يكون قادرًا على جني المحاصيل المطلوبة. فعلى الرغم من كونه صاحب مِساحات خصبة، فلن يكون أفضل حالًا من الشخص الذي لا يملك أيّ شبر مربّع من الأراضي باسمه. وينطبق الشيء نفسه على الحياة البشريّة؛ فهي تزدهر في جوّ السّلام، وتفنى في جوّ العنف.

إنّ العنف نتاج للاختلافات بين الناس. فالذي يؤمن بالأساليب العنيفة يَعُدّ الاختلافات شرًّا أو عقبة في مسار حياته. ولهـذا السبب، فإنّه يصمم على اجتثاث هذا الشرّ، لأنّـه يعتقد أنّه لا يمكنه تحقيق أهدافـه إلا عندما يزيل الخلافات بينه وبين الآخريـن. ويُعَدّ هذا سوء فهم كبيـر؛ لأنّ الاختلافات ليست من صنع الإنسان، فهي من ترتيب الخالق نفسه، وهي جزءٌ أساسيّ من الطبيعة، فلا يمكن أن يوضع حدّ لأيّ شيء يكون جزءًا أساسيًّا من الطبيعة. وعليه، فإنه لا يمكننا إلا أنْ نقبـل الطبيعة على ما هي عليه، والقضاء عليها

هو أبعد من قدراتنا. ولهذا السبب، عندما تُقتل مجموعة بدعوى الاختلافات، فإنّ مجموعة أخرى تأخذ مكانها فورًا، ويستمرّ الأمر إلى ما لانهاية بهذه الطريقة. وهذا هو السبب في أنّ هذه السلسلة من الفعل وردّ الفعل بشأن مسألة الاختلافات لا يمكن وقفها.

إنّ أسلوب العنف يتعارض مع سنّة الطبيعة، التي تضمن لكلّ فرد كامل الفرص لأداء دوره أو دورها في التقدّم البشريّ عن طريق استغلال القدرات إلى الحدّ الأقصى. ولا يمكن الإفادة من هذه المزية إلا في جوّ سلميّ. إنّ مرتكبي أعمال العنف، عن طريق تصنيف الناس إلى أعداء، يحاولون القضاء على حياة الناس الغالية، حتى قبل أن تُتاح لهم الفرصة للإفادة من قدراتهم، وكذا إفادة الإنسانيّة منها.

وَوَفقًا لقانون الطبيعة، فإنّ أيّ مَهَمَّة كبيرة تتطلّب دائمًا دعم المجتمع بكلّ أطيافه. فمن غير المشاركة الجماعيّة، لا يمكن لأحد أنْ يحقق أيّ انتصارات كبيرة. وهذا يمكن أنْ يتحقق فقط في جوّ سلميّ. ويعدّ التعاون المتبادل في أجواء العنف شيئًا مستحيلًا، ففي مثل هذه الأجواء يميل الناس إلى أنْ يكونوا غير متوازنين نفسيًّا. فكيف يمكن للتعاون المتبادل أنْ يصبح ممكنًا في مثل هذه البيئة؟

يكمن أحد شرور العنف في أنّه لا يمكن تحقيق أيّ تنمية مستدامة في جوّ الشرّ الذي يوجده،؛ فأيّ مَهَمَّة كبيرة للتقدّم تصبح موجّهة نحو تحقيق النتائج فقط بعد التخطيط والعمل على المدى البعيد، وهذا لا يمكن إنجازه إلا في بيئة سلميّة، أمّا في أجواء العنف، فإنّ مثل هذه الخطط تتعرّض لنكسات مرارًا وتكرارًا من غير إحراز أيّ تقدّم؛ فبحجة قتل العدوّ، تتلقى عمليّة التقدّم البشريّ ضربة قاضية.

إنّ الأثر الأكثر سوءًا لاستخدام العنف هو أنّك لا تتلقّى شيئًا في المقابل، حتّى إنك قد تهدر المكاسب السابقة. وبذا، فإنّ أيّ انتصار تحققه عن طريق اتّباع وسائل العنف هو في الواقع هزيمة.

ما العنف؟ إنّه الخيار الخطأ الذي يتّخذه من يعاني الشعورَ بالحرمان؛ فأيّ مجموعة، أعلى حقّ كانت أم على باطل، قد تعاني هذا الشعور، وليس هناك سوى طريقة واحدة مفيدة للتخلّص من ذلك، لن يكون هذا إلّا بالوسائل السلميّة. إنّ الطريقة العنيفة طريقة قاتلة إلى الحد الذي لا يجعلها خيارًا لأحد بتاتًا. والعنف، من وجهة نظر النتيجة، لا يضيف إلا شعورًا بالحرمان، بدلًا من وضع حدّ لذلك؛ فهو ليس إلا انفجارًا لشخص استُفزّ؛ وبذا، فإنّ العنف لا يستطيع تقديم أيّ حلّ إيجابيّ لأيّ مشكلة.

النصرُ؛ هزيمةُ أيضًا

شنّ الملك بيروس؛ أحد ملوك اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد، حربًا ضروسًا على الرومان، وحقّق نصرًا ساحقًا في النهاية، لكنّه كان انتصارًا مكلفًا جدًّا على الجيش الرومانيّ.

دُمّرت جيوشه في هذه المعركة الطويلة، ودُمّر اقتصاد بلاده كليًّا. أما في نظر بيروس الملك فقد كان هذا انتصارًا في الظاهر، ولكنّ النتيجة لم تكن غير الهزيمة؛ فلقد كانت نجاحاته العسكريّة المكلفة هي التي أنشأت المفهوم العصريّ الحالي (انتصار باهظ الثمن).

عندما ننظر إلى تاريخ الحروب المختلفة، فلن يكون من المبالغة القول: إنّ معظم الانتصارات في طبيعتها كانت باهظة الثمن؛ فعلى كلّ منتصر أن يعاني

نوعين من الخسائر: الأول، التضحية بالحياة والثروة والموارد، والآخر: فقدان الحبّ والاحترام من الطرف المهزوم. ولهذا، فلا يمكن لأيّ منتصر تجنّب معاناة هذه الخسائر. والفرق الوحيد بيـن منتصر وآخرَ هو أنّه في حين أنّ بعض المنتصرين يعانون الخسائرَ عاجلًا، فإنّ بعضهم الآخر يعانيها في وقت لاحق، ومسألة الخسارة هذه لا تتعلّق إلا بنهج العنف. إنّ نهجًا سلميًّا سوف يؤدّي تمامًا إلى نتيجة مختلفة، فلو اتّبعنا الطرائق السلميّة، فإنّ النصر وحده يكون النتيجة، إذ ليس هناك في هذه الحالة مجـال للهزيمة. وحتى لو قاد الطريق السلمي ظاهريًّا إلى هزيمة، فإنّ المحصلة النهائيّة ستكون انتصارًا؛ لأنّ الإنسان قد يخسر حربًا بالطريقة السلميّة، لكنه لا يخسر الفرص. التي يستطيع، عن طريق استغلالها جيّدًا بدء حياته من جديد وتحقيق النجاح.

انتهى عهد الحروب

كانت المواجهات العسكريّة في العصور القديمة منها والوسطى تجري عن طريق التحام الجنود والاشتباك بالسيوف وجهًا لوجه، أمّا في العصر الحديث فإنّ أسلحة معقّدة ومتطوّرة جدًّا تستخـدم، مثل الصواريخ النوويّة. والفرق الأساسيّ بين الزمنين هو في حجم المذبحة في كلّ حالة على حدة؛ فالضرب بالسيوف قد يتسبّب في قطع عدد قليل فقط من رؤوس المقاتلين، لكنّ العدد في العصر الذريّ تغيّر تمامًا؛ فالحرب تعني دمارًا شاملًا في الوقت الراهن؛ فالقنبلة التي تستهدف العدو تكون مدمّرة للمستخدم أيضًا. وبمواجهة هذه الحقائق الصعبة، علينا أنْ نسلّم بأنّ الحرب قـد أصبحت ممارسة عقيمة؛ فهي الآن مظهر من مظاهر الجنون، بدلًا من أنْ تكون إجراءً محسوبًا لتحقيق الهدف المرجوّ. وبعد ظهور الأسلحة النوويّة، أصبحت الحرب أمرًا لابدّ من

نبذه والتخلّي عنه؛ فعندمـا نرى أنّ اللجـوء إلى الحرب لا يظهـر أيّ نتائج إيجابيّة، فـإنّ شنّها بعد ذلك، ناهيك عن أنها خطـوة غير حكيمة، ليس إلا ضربًا من الجنون.

هناك من يعتقد أنّ إرساء السّلام يتطلّب حكومة عالميّة، وهذا يتطلّب قوّة شرطة مسلّحة وجيشًا ليسود السّلام في أنحاء العالم. لكنّ مفهوم الحكومة العالميّة هذا غير عمليّ؛ لأنّه لن يخدم الهدف إلا على نحو محدود جدًّا. وبذا، فإنّ مخطط الحكومة العالميّة لإحلال السّلام هو أبعد ما يكون عن المثاليّة.

دعونا نفترض أنّ مثل هذه الحكومة العالميّة قد دخلت حيّز الوجود، فحينئذ ستكون قادرة على إنشاء السّلام على مستوى الإدارة فقط. وبكلمات أخرى، فإنّ هذه الحكومة العالميّة المتوقعة لن تقدّم حتى في أفضل حالاتها إلا سلامًا اجتماعيًّا، ولكنّ الأكثر أهميّة من هذا هو السّـلام العقلي، الذي لن تحققه أيّ حكومة عالميّة.

إنّ السّلام على صورة الاستقرار الاجتماعيّ، كما تنفّذه الحكومات القائمة، كان سائـدًا في ممالك العصـور القديمة. لكنّ النتائج المرجـوّة لم تتحقق مطلقًا. والإمبراطوريّة الرومانيّة تقدّم مثالًا على ذلك، فخلال مدّة حكمها التي دامت أكثـر من ألف سنـة، نشرت السّـلام في نطاق واسـع في الكرة الأرضيّة. وكانت هذه الحالة تُعرف باسم السلام الروماني. ولكن، على الرغم من إحلال السّلام عبر هذه المدّة الطويلة من الوقت، لم يكن هناك أيّ تقدّم علميّ أو فكريّ.

وهذا يدلّ على أنّه، على الرغم من الرّغبة في السّلام الاجتماعيّ، فإنّ هذا سيكون مفيدًا للتقدم البشري وعلى نحو جزئيّ فقـط. إنّ العمليّة الحقيقيّة

للتقدّم البشريّ لن تتمّ إلا عندما يكون لدى الأفراد الذين يشكّلون المجتمع القدرة على التفكير السلميّ.وإضافة إلى المظهر الخارجي، فمن الضروريّ أن يكون لدى الناس سلام داخليّ لتتقدّم البشريّة، بحيث لا يعيشون حياة مليئة بالتوتّر غير الضروريّ، والإجهاد، والتناقضات. إنّ الشرط الأكثر أهميّة للتقدّم البشريّ هو عمليّة التفكير، فحالما ابتدأت، فإن عليها ألا تنحرف عن الطريق مواجهة العقبات. وهذا ضروريّ جدًّا لتطوّر الشخصيّة؛ فبهذه الطريقة فقط يمكن للفرد تحقيق أعلى مستوى روحاني وفكري.

إنّ السّلام بلا شكّ، يُعَدّ شرطًا أساسيًّا للتقدّم البشريّ. وهو، في الواقع، أساس هذا التقدّم كلّه. وإذا شكّل السلمان: الاجتماعيّ والسياسيّ 50% من هذا الأساس، فإنّ السلامين العقليّ والروحانيّ سيشملان الـ 50% الأخرى. إن إرساء السّلام على الجبهات الوطنيّة والدوليّة يبدو، عمليًّا، أمرًا صعبًا، وربّما لا يمكن تحقيقه البتّة بالمعنى المثالي. ولكن في الحالات جميعها، فإنّ سلام العقل أمر يمكن تحقيقه على وجه اليقين. أمّا السّلام الخارجيّ، فمن الضروريّ للجميع أن يتعاونوا من أجل المحافظة عليه، لكن تحقق سلام العقل الداخلي لا يحتاج إلا إلى التقليل من التعاون الخارجي او قد لا يحتاجه إطلاقًا فالفرد وبقراره الشخصيّ، يمكنه تحقيق مثل هذا السّلام، حتى لو أصبح كلّ من حوله ضدّ الفكرة. إنّ هذه المزية التي يمتلكها الفرد هي نعمة كبيرة من دون أدنى شكّ، وفي الحقيقة إنّها نعمة لا تضاهيها أيّ نعمة.

بيان للسلام

إنّ السّـلام هو الديـن الوحيد لكلّ من الإنسـان والكون؛ فالأشيـاء الحسنة جميعها ممكنة في بيئة سلميّة، في حين لا يمكننا تحقيق أيّ شيء ذي طابع

إيجابيّ في غياب السّلام، سواء أأفرادًا كُنّا أم مجتمعات. وينطبق الأمر نفسه على الصعيدين: الوطنيّ والدوليّ.

ما السّلام؟

لقد عرّف العلماء السّلام بأنّه: (غياب الحـرب)، وهذا التعريف صحيح بلا نقاش؛ فالسّلام في الواقع يعنـي عدم وجود حالة حـرب أو عنف، ومعَ ذلك، فإنّ بعض الناس يعتقدون أنّ هذا التعريـف ليس كافيًا؛ فهم يقولون: إنّ السّلام يجب أنْ ترافقه العدالة، وإنّ السّلام بلا عدالة ليس سلامًا. لكنّ وضع مثل هذا الشـرط لتحقيق السّلام يُعَدّ أمرًا غيـر عمليّ؛ لأنّ السّلام لا يحقّق العدالة من تلقاء نفسه، ما يعني أنّ العدالة ليست بالضرورة عنصرًا من عناصر السّلام. فما يفعله السّـلام في الواقع، هو إتاحة الفرص وتهيئة الظـروف المواتية التي تمكننا مـن السعي إلى تحقيـق العدالة وغيرها من الغايات البنّاءة. إنّ السّلام مرغوب فيه لأجل السّلام نفسه، وكلّ شيء آخر يأتي بعد السّلام، وليس جنبًا إلى جنب معَه.

إنّ سياسة السّلام تقدم دائمًا بدور (قنبلة) للسلام، بمعنى أنّها تقهر العدوّ من غير أيّ سفك للدماء. إنّ التاريخ يدلّ على أنّ قنبلة السّلام أثبتت دائمًا أنّها أقوى من قنبلة العنـف؛ (فقنبلة) السّلام تعني الحيـاة، وقنبلة العنف تعني الموت. إضافة إلى أنّ (قنبلة) السّـلام تقود إلى العمران والبناء، في حين أنّ قنبلة العنف تؤدي إلى الدمار. وبالمثل، فإنّ (قنبلة) السّلام تجلب التقدّم، أما قنبلة العنف فتجلب الفناء. وإذا كان السّلام يعزّز الإبداع، فإن العنف يأتي بالعكس تمامًا. وفي الوقت الذي تستند فيه قوّة (قنبلة) السّلام إلى الحبّ، فإن قنبلة العنف تستند إلى الكراهية.

وفي هذا السياق، نجد مثالًا مثيرًا للاهتمام بالنهج السلميّ في الهند. لقد ابتدأ كفاح الهند من أجل الحرّية عام 1857م. ولكن، بعد أكثر من ستين عامًا من التضحية، ظلّ الهدف السياسيّ المنشود حلمًا بعيد المنال. ثمّ عام 1920م، ظهر غاندي قائدًا لكفاح الحرّية، متّخذًا نهجًا مختلفًا تمامًا؛ فقد تخلّى عن أسلوب العنف، واختار مسار العمل السلميّ من أجل حركة النضال في سبيل تحقيق الحرية.

وقد أخذت الأمور منعطفًا إعجازيًّا بعد ذلك، حيث أصبحت الإمبراطوريّة البريطانيّة مشلولة؛ لأن غاندي حرم الإنجليز من أيّ مسوِّغ لاستخدام العنف. والحكايةُ الآتية خيرُ مثال على ذلك: عندما أطلق غاندي حركة الحريّة في الهند عن طريق اتّباع الوسائل السلميّة بدلًا من اللجوء إلى العنف، أرسل ضابط بريطانيّ برقية إلى وزارته جاء فيها:

(أرجو أنْ تبرقوا لنا بتعليمات كيفيّة قتل نمر بأسلوب غير عنيف).

لذلك، فإنّ النجاح الذي لم يكن في متناول اليد، حتى بعد صراع طويل وعنيف، قد تحقق بطريقة سلميّة في مدّة قصيرة من الزّمن.

السّلام نظام كامل في قواعد السلوك

بدءًا للعنف والسّلام، على حدّ سواء، مدلولات واسعة؛ فالعنف يشمل كلّ شيء بدءًا من الكراهية، وصولًا إلى الحرب. وينطبق الشيء نفسه على السّلام، الذي يتضمّن كلّ شيء بدءًا من التسامح ووصولًا إلى الحبّ. إنّ كلًّا من العنف والسّلام نتائج للتفكير الإنسانيّ، الذين يتورّطون في أعمال العنف هم أسوأ الناس في هذا العالم، في حين أنّ الذين يختارون السلوك السلميّ

هم الأفضل. إنّ السّلام يعني الحياة الطبيعيّة التي توفر هذه الفرص كلّها في بيئة صحيّة. وينبغي أنْ تسود الحالة الطبيعيّة، حيث يمكن للناس العيش والعمل من غير أيّ عائق خارجيّ.

أضف إلى هذا أنّ العنف يغلق الأبواب أمام الأعمال الإيجابيّة، في حين أنّ السّلام يفتح الأبواب لها، فيهيئ جوًّا من التعايش الإيجابيّ للفرد، والمجتمع والأمة عامة. إنّ أنواع الإنجازات جميعها تكون ممكنة في بيئة من السّلام؛ فإذا كانت مواقف العنف تعرقل تلك الفرص، فإنّ السّلام يساعدها على الازدهار؛ حيث تُرعى قدرات الإنسان الإبداعية وتُطوّر.

وبما أنّ السّلام نعمة للمجتمع البشريّ، فإنّ العنف لعنة. فالسّلام مصدر قوّة، والعنف هو العائق. السّلام حبّ، والعنف كراهية، ولما كان السّلام هو المحبّة، فإنّ العنف هو العداء. وفي الوقت الذي يقرّب فيه السّلام بين الناس، فإن العنف يفرّقهم، والسّلام يعزّز مستوى عاليًا للثقافة البشريّة، ويعمل على ازدهارها، في حين أنّ العنف يعزّز ثقافة الغاب، والسّلام يرفع الإنسانيّة إلى مستوى الوجود الاجتماعيّ المتحضّر، في حين يقود العنف إلى الانزلاق صوب دركات الهمجيّة، إضافة إلى أنّ السّلام يعزّز الحياة، أما العنف فنذير شؤم؛ موت ودمار، فضلًا على أنّ السّلام يبرز عناصر الخير في المجتمع إلى الصّدارة، في حين يفعل العنف عكس هذا تمامًا.

السّلام يحوّل الرديء إلى حَسَن

وَفقًا للطبيب النفسيّ الألمانيّ: ألفريد أدلر، فإنّ البشر يمتلكون مزية فريدة من نوعها، هي (قدرتهم على تحويل السالب إلى موجب). ما الذي يمكّن الإنسان من أداء هذا العمل الفذّ غير العاديّ؟ إنّ الجواب الوحيد هو أنّ ذلك

يتحقّق من خلال السّلام؛ فدماغ الإنسان كنز للقوّة غير المحدودة، فإذا فقد الإنسان طمأنينة النفس وقت الأزمة، فإنّه لن يستفيد فيها من قدرته العقليّة بطريقة إيجابيّة. إنّ التفكير السلبيّ عقبة في طريق التطور البشري، في حين أنّ التفكير الإيجابيّ يُعَدّ مانحًا للحياة؛ كونه يحفّز القدرات البشريّة. ولذلك، حين يتمكّن الفرد أو الأمة من المحافظة على السّلام في كلّ الحالات، فإنّ كثيرًا من الإمكانات تنفتح أمامه، وهذا يحدث عندما نتمكّن من تحويل السالب إلى موجب.

الطريق إلى تحقيق السّلام

إنّ السّلام ضروريّ للحصول على طريقة فضلى للعيش؛ سلام العقل، والسّلام في الأُسر، والسّلام في الطبيعة. واليوم في هذا العالم التقني الحديث، فإنّ الإنسان قد تمكّن من الوصول إلى كلّ ما يريد. ومعَ ذلك، وفي غياب السّلام، فقد أصبح كلّ شيء بلا مغزى. إنّ المطلوب لتحقيق توازن هو الحبّ، والرّحمة، والتسامح، والصبر، وروح التعايش.

كيف يمكن أن نحقق السّلام؟ إنّ الصيغة بسيطة جدًّا. اقنع بما تيسّر لك من غير أن تغتصب شيئًا من الآخرين، ولبِّ حاجاتك الذاتية من غير حرمان الآخرين ما هو لهم، وأشبع رغباتك من غير إحباط الآخرين، وحقّق طموحاتك من غير إنكار حقّ الآخرين في أن يقوموا بالمثل تحقيقًا لرغباتهم وطموحاتهم. وباختصار، حلّ مشكلاتك الشخصية من غير افتعال مشكلات لمن هم حولك. إنّ التعايش السلميّ هو السبيل الوحيد للوجود في هذا العالم.

ومعَ ذلك، فالحياة السلميّة لا يمكن تحقيقها إلا عندما يدرك البشر حدودهم ويلتزمونها. وَوَفقًا للمشيئة الإلهيّة، فإنّك تستطيع أنْ تأخذ من

العالم كلّ ما ترضي به حاجتك، لا جشعك. فيمكنك المتاجرة معَ الآخرين، لا استغلالهم. ويمكنك أيضًا تعزيز فرديّتك الشخصيّة، ولكن ليس على حساب الأسرة والمجتمع. يمكنك أن تحيا حياتك اليوميّة بالمحافظة على التقاليد الاجتماعيّة وليس تدميرها، ولك الحريّة الكاملة لتعيش حياتك الخاصة، ولكن مع الاهتمام ببقية أفراد المجتمع لا تجاهلهم، ويمكنك استخدام الموارد لمصلحة الإنسانيّة، ولكن ليس من أجل تبذيرها، ويمكنك أيضًا الإفادة من موارد الطبيعة لمنفعة البشريّة، لا من أجل تدميرها، إضافة إلى أنّ لك الحرّية في استخدام الوسائل السلميّة، لكنّك لست مخوّلًا باللجوء إلى العنف. لذا، فإنّ لك الحرّية في استخدام موارد الطبيعة، ولكن بالمحافظة على توازنها، إضافة إلى أنّ لك الحريّة في استخدام الطاقة النوويّة لأغراض سلميّة، لا لبناء أسلحة دمار شامل، ولك الحريّة أيضًا لتغذية مشاعر المودّة والرحمة، لا لتفسح المجال للكراهية والتحيّز، فأنت حرّ في تلبية حاجاتك ورغباتك الجسديّة، ولكن ليس بقتل روحك من الناحية الروحانيّة. وباختصار، فإنّ لديك الحريّة لتستمتع بالحياة من خلال التشارك معَ الآخرين، لا بالقضاء عليهم.

ثمن السّلام

لا نستطيع الحصول على أيّ شيء في هذا العالم من غير دفع ثمنه؛ فلكلّ شيء ثمن، وهذا ينطبق تحديدًا على السّلام؛ فإذا كنّا نريد السّلام فعلينا أنْ نكون على استعداد لدفع ثمنه أو نصبح محرومين منه. ولكن، ما ثمن السّلام؟ إنّه التسامح؛ فنحن نعيش في عالم من الاختلافات التي لا يمكن القضاء عليها، ولذلك ليس لدينا سوى خيارين: التسامح أو التعصّب، ففي

حين أنّ التعصّب يقود إلى العنف، فإن التسامح يحقق السّلام، فحيثما كان التسامح كان السّلام، وحيثما كان التعصّـب كانت الحروب وأعمال العنف. وهذه هي الصيغة العالميّة الوحيدة للتسامح من أجل السّلام، وهذه الصيغة نفسها يمكن تطبيقها بنجاح في الحياة العائليّـة والاجتماعيّة، وكذلك على المستوى الدوليّ. إنّ السّلام يتطلب منّا تعزيز ثقافة التسامح؛ لأنّ التعصّب لا يؤدّي إلا إلى الحرب.

الطبيعة نموذج للسلام

إنّ السبب الجذريّ لمعظـم مشكلاتنا في العالم الحالـيّ يمكن أن يعزى إلـى الانحراف عن نمـوذج المنهج السلمـيّ للطبيعة، الذي هـو أفضل نهج نتّبعـه؛ فالمعضلات جميعها التـي نواجهها اليـوم تنشأ لأننا لـم نتّبع مثال الطبيعة.

فالنجوم والكواكب في حركـة مستمرّة فـي مداراتها، لكنّهـا لا تتصادم معَ بعضها، وهذا يظهر للإنسـان كيفيّة المُضِيّ قُدُمًا مـن غير الصراع معَ الآخرين. والشمس أيضًا نموذج ممتاز، فهي ترينا كيف يجب أنْ نعطي الحياة للآخرين من غير أيّ تمييز بينهـم، أيضًا، الشجرة مثـال ساطع للإنسان، فهي تزوّدنا بالأكسجيـن الصحيّ والمفيـد مقابل حصولها علـى غاز ثاني أكسيد الكربون الضـارّ. وانظر إلى الورود كيف تنشـر عبقها في كلّ مكان، من غير انتظار المقابل علـى فعل ذلك، والنبع المتدفـق يروي الحقول من غير توقع أيّ شيء في المقابل. وخُلاصة الأمر أنه من غير غرس قيم الإيثار هذه بيـن بني البشـر، فإنه من غيـر الممكن وجـود حيـاة ذات معنى على الأرض.

وباختصـار، فإنّ الإيجابيّة تسود في عموم الطبيعة، والسلبيّة لا وجود لها في العالم الطبيعيّ. وهذا يعلّمنا درسًا هو أنّ استجابتنا يجب أنْ تظل إيجابيّة في الأوقات جميعها، حتى في الحالات السلبيّة.

عالم الطبيعة الجميل

لا تقتصر العيش الإيجابيّ، في هذا العالم، على السلوك الأخلاقيّ فقط؛ وحري بنا أنْ نتّبع مسـارًا إيجابيًّا في الأوقات كلّهـا والحالات جميعها؛ ففي هذا الكون الفسيح، لا يوجد إلا كرتنا الأرضيّة الصغيرة؛ حيث يمكن للبشر أن يعيشوا. وحتى الآن، لم نكتشف أيّ بقعة أخرى في هذا الكون تحوي أنظمة داعمة للحياة. ولذلك، فإنّ المحافظة علـى الطبيعة تُعَدّ مرادفًا للمحافظة على الحياة، في حين أنّ تدميرها سوف يؤدّي إلى الانقراض الكليّ، لذا فإنّ الانخراط في التعايش الإيجابيّ باستمرار يسهم في إنقاذ الحياة، في حين أنّ الفشل في القيام بذلك هو وسيلة مؤكّدة للانتحار.

هذا العالم الجميل الذي خلقه الله يمضي في طريقه إلى التدمير على يد الإنسان.

إنّ العنف واسع النطاق، والاضطرابات البيئيّة، وظاهرة الاحتباس الحراريّ أصبحت جميعها خطرًا أكبر من خطر حرب عالميّة ثالثة. وفي الواقع، فإنّها تبدو كما لو أنّ الحرب العالميّة الثالثة قد داهمتنا فعلًا، وهذا هو أكبر تهديد نواجهه هـذه الأيام. ولهذا، أصبـح لزامًا علينا أن نعمـل بإخلاص واتحاد؛ لإنقاذ الطبيعة لمصلحة البشريّة جمعاء.

السّلاح النوويّ، من أجل ماذا؟

إنّ القنابل النوويّة والأجهزة التدميريّة الأخـرى تُعَدّ ضدّ المشيئة الإلهيّة تمامًا السائدة في عالم الطبيعة الجميل. إذن، لماذا يجب أنْ يكون هناك، وبعد ذلك، هذا التخزين الحاليّ للأسلحة النوويّة، الذي يُعَدّ أعظم تهديد، ليس فقط للسلام، وإنما أيضًا لبقاء الجنس البشريّ؟

هنا ينبغي التأكيد على أنّ الأسلحة النوويّة غير صالحة للاستعمال؛ فسلاح دمار شامل، كالقنبلة الذريّة مثلًا، لا يمكن استخدامه إلا مرّة واحدة فقط. لذلك، فإنّ هيروشيما وناجازاكي قد مثلتا نقطة توقف كاملة، لا وقفة مرحلية. ثمّ لماذا تحاول بعض الدول الحصول على مزيد ومزيد من القنابل النوويّة؟ الجواب: لأنّها تريد المحافظة على وضعها كقوى نوويّة، مع أنّ هناك بديلًا أفضل بكثير من امتلاكهم القوّة النوويّة، إنه تدمير القنابل النووية جميعها، فمثل هذا الفِعل من شأنه أنْ يؤدّي إلى (انفجار) سلميّ، وأيّ شخص يتجرّأ على القيام بذلك سيظهر كأنه الفائز الروحانيّ في القوّة الأخلاقيّة العظمى، على عكس المتنافسين في السباق النوويّ؛ حيث قد لا يكون هناك أيّ فائز.

وممّا لا شك فيـه أنّ كونك أي دولة القوّة الأخلاقيّـة العظمى يجعل تحلّق آلاف الأميـال أعلى ممّن تعُدّ نفسهـا قوّة نوويّة عظمى. ومثـل هذه الخطوة الثوريّة لا يمكن اتخاذها على أساس ثنائـيّ الجانب، فمن الممكن تطبيقها على أساس أحادي الجانب. إنّ عمليّة نزع السلاح النوويّ ليست مجرّد فعل تدمير للأسلحة النوويّة؛ فنزع السلاح النوويّ، في الواقع، هو تحويل (قنبلة العنف) إلى (قنبلة السّلام)، وهذا يُحدث انفجـارًا سلميًّا. وأيّ دولة تثبت بأنّها جريئة بما يكفي لتغتنم هذه المبادرة السلميّة، ستخسر ظاهريًّا وضعها

كقوة نوويّة، ولكنها في الوقت نفسه ستكسب أوضاعًـا أعلى شأنًا وقوّة، هي القوى الأخلاقيّة والروحانيّـة العظمى. فمثل هذه القوة فقـط يمكنها تلبية المطلب الملح، وهو بدء عمليّة السّـلام. إن انفجار (السّلام) هذا يستطيع تحويل هذا العالم الغارق بالعنف إلى عالم يسوده السّلام.

السّلام سلوك إيجابيّ

السّلام هو نتاج موقف عقليّ إيجابيّ، في حين أنّ العنف هو نتيجة تفكير السلبي. إنّ السّلام هو الحالة الطبيعيّـة للمجتمع، أمّا العنف فهو حالة غير طبيعيّة، والسّلام يتماشى وَفقًا لسنّـة الطبيعة بقدر ما يكون العنف ضدّها؛ فعندما تسود الظروف السلميّـة في المجتمع فإنّ الأنشطـة جميعَها تحدث بأشكالها المناسبة، ولكنْ إذا أُخلّ بأجواء السّـلام، فإنّ المسيرة الطبيعية للمجتمع ستتعطّل، وهذا القانـون ينطبق على الإنسـان، وكذلك على الكون كلّه؛ فوَفقًا لسنّة الطبيعة، فإنّ السّلام هو السرّ الوحيد لسير الأمور بسلاسة وانتظام في المجتمع البشريّ، وكذلك في بقيّة الكون. ولذلك، فإنّ السّلام شرط أساسيّ للإنسان، وهذا يستدعي المحافظة عليه في الحالات جميعها؛ فمن غير السّلام لا يمكن أنْ تكون هناك تنميـة أو تقدّم، ولا يوجد أيّ عذر يبرّر على الإطلاق استخدام العنف، سواء على المستوى الفرديّ أو الوطنيّ. وبغضّ النظر عن الظروف المحيطـة، فإنّنا لا نستطيع الاستغناء عن أجواء السّلام، لذا يجب علينا المحافظة على السّلام من جانب واحد؛ لأنّه ما من شيء نرغب في تحقيقه قد يتمّ من غير السّلام.

إنّنا إذا فشلنـا في تحقيق السّـلام، فإنّ علينـا أنْ نواجه الدمـار في كلّ ميدان من ميادين الحياة، فالخيار أمامنا ليس بين السلم واللاسلم، ولكنّه

بين السّلام والإبادة. وعلى هذا، فمن غير سلام لا يوجد أمل لبقاء الجنس البشريّ.

الراحة الروحانيّة

إنّ أكثر ما يزعج سنّة الطبيعة السلميّة يعزى أساسًا إلى حقيقة أنّ الناس أصبحوا ماديّين على نحو مفرط، وهذا هو التفكير الذي يؤدّي إلى استغلال الطبيعة، ممّا يؤدي إلى اضطراب في سنّة الطبيعة السلميّة هذه. فإذا اختار الناس طريق الاعتدال فإنّهم سرعان ما سيكتشفون أنّهم إذا كانوا مرتاحين ماديًّا في السابق، فإنّهم سيكونون مرتاحين روحانيًّا الآن. وما لا شكّ فيه أنّ الراحة الروحانيّة أفضل بكثير من الراحة الماديّة.

إنّ مرتكب العنف، سواء كان هتلر أو رجلًا عاديًّا، يعاني دائمًا تأنيبَ الضمير، في حين أنّ صانع السّلام يستمدّ الارتياح الكبير من جهوده. وإذا كان للمرء أنْ يفكر في النتيجة النهائية، فلن ينغمس أحد أبدًا في العنف.

وينبغي للجميع أنْ يضعوا في حسبانهم أنّ السّلام يتّفق مع البشريّة، في حين أنّ العنف يعني الانحدار إلى مستوى الحيوان.

السّلام حقّ الإنسان المطلق

إنّ ثورة السّلام هي نتيجة التفكير السلميّ؛ فالعقول السلميّة تعمل لعالم يسوده السّلام، فقد ولد الإنسان في سلام، ويجب أن يموت في سلام. إنّ السّلام حقّ الإنسان منذ الولادة، وهو أعظم نعم الله على بني البشر.

الفصل السادس: السّلام في الطبيعة

إنّ دراسة الكون تظهر أنّ نظامه الممتدّ يستند كليًّا إلى مبدأ السّلام؛ فهناك عدد لا يحصى من الأجرام السماويّة في أنحاء هذا الكون، في حركة دائمة من غير أيّ تصادم يحدث بينها. إن كل واحد منها يدور وبدقّة متناهية داخل مداره، من غير التعدّي على أيّ مدار آخرَ، وهذا هو السبب، في عدم حدوث أيّ اشتباك أو مواجهة في عالم الطبيعة.

إنّ ثقافة الكون هي ثقافة السّلام، وهي أمر مرغوب فيه للإنسان أيضًا. وعلى الإنسان أن يعتمد هذا المبدأ الشامل في حياته. وبنبذه طريق المواجهة، يجب عليه أن يختار طريق السّلام.

وبسبب الالتزام بثقافة السّلام هذه، فإنّ الكون يسير منذ بلايين السنين من غير أيّ تصادم قد يعكّر صفو نظامه. وهذا يعني أنّ ثقافة العنف لو سادت بدلًا من ذلك، فسنجد أنّ مختلف مكوّنات هذا الكون قد تصادمت وتدمرت، ولما أصبح الكون صالحًا للسكن منذ أمد بعيد.

إنّ الخالق الذي أوجد نظام هذا الكون قد خلق البشر أيضًا، وقد أراد للإنسان أنْ يختار ثقافة السّلام التي ترسخت في هذا الكون الفسيح. ومعَ ذلك، هناك فرق بين الإنسان والكون؛ فقد فرضت ثقافة السّلام هذه على الكون بقوى الطبيعة، لكنّ الإنسان مُنح حريّة العمل بنهج السّلام. ولذلك، ينبغي للبشر نشر هذه الثقافة بإرادة واعية وطواعيّة؛ كي يسود الانسجام حياتهم.

نظام الطبيعة

لقد وُضِع النظام في هذه الأرض، التي يقطنها الإنسان، منذ اللحظة الأولى لخلقها. وعليه، فقد أُعِـدَّ كلّ شيء وَفقًا لخطّة فـي مصلحة البشريّة. وهذا يعني أنّ أيّ شيء يقوم به الإنسان على هذه الأرض، ينبغي القيام به من غير أيّ تغيير لسنّة الطبيعة. فلو عبث الإنسان بها ولو بأدنى الدرجات، فإنّ هذا سيؤدي إلى انهيار النظام الطبيعيّ الموضوع من الخالق وَفقًا لترتيب معيّن. ونتيجة لذلك، سوف ينتشر الفساد في كلّ مكان.

لقد حصلت في عالمنا أحداث لا تُعَدّ ولا تُحصى، يحكمها قانون الطبيعة، مثلًا: استمرار دوران الأرض، وتلقّي الضوء من الشمس، وهبوب الرياح، وبدء هطل الأمطار، وتدفّق مياه الأنهار، ونموّ النباتات والأشجار، وما إلى ذلك. إنّ هذه العمليّات جميعها من هذا النوع تستمرّ ليلًا ونهارًا، والأمر المبهر هو كيف أنّها تحدث بطريقة سلميّة جدًّا، فلا وجود للعنف، ولا للصدام، ولا للمواجهة.

وكون هذه هي الطريقة الطبيعيّة للإصلاح، فينبغي للبشر أنْ يتّبعوا طريقة الطبيعة هذه، نابذين العنف والمواجهة.

ولا ينبغي لهـم أنْ يتصرّفوا كالفرد العنيف الذي يعتمـد على أشياء، مثل السيوف والبنادق أو القنابل، ولكن ينبغي أن يستمـدّوا قوّتهم من الصّفات البشريّة النبيلة، مثل الصّبر والتحمّل، وتجنّب الصّراع، والاستعداد للتكيف المتبادل، وما إلى ذلك. إنّ هذه الإستراتيجيّات من شخص محبّ للسلام هي في توافق معَ سرمدية وحتميّة قوانين الطبيعة، الذين يعارضونها هم بالتأكيد

سيعملون على إيجاد اضطرابات كبيرة في كلّ مكان، ولن يكونوا قادرين على إنشاء نظام صالح.

قانون التحوّل

يحتاج جسم الإنسان إلى الدّم في نظامه للبقاء على قيد الحياة، ولكنّنا لا نستطيع تحصيل الدّم الجاهز في هذا العالم. لهذا، فإننا بحاجة إلى نظام يتحول فيه اللادم إلى الدّم، بعد المرور في عمليّة طبيعيّة معيّنة، ومن غير هذه العمليّة لن نتمكن من تأمين الدّم لأنفسنا.

مثلما أنّ الدمّ ضروريّ لوجودنا الماديّ، فإنّ السّلام ضروريّ أيضًا لبقائنا الاجتماعيّ، ولكننا لا نستطيع العثور على سلام جاهز في هذا العالم، ولذلك فإنه ينبغي لنا أنْ نعمل على تطوير عمليّة تحوّل اللاإسلام إلى سلام. وعمليّة صنع السّلام هذه هي ما عبّر عنها يسوع المسيح قائلًا:

(أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) (لوقا، 20:25)

هذا يعني أنّه من خـلال تجنّب الصدام وجهًا لوجه فـي ظلّ ظروف غير مواتية، فإنّنا قد نكسب الوقت لتحقيق أهدافنا.

ويمكن التعبير عن هـذه الصيغة في سيـاق السّلام كالآتـي: تحمّل حالة اللاسلم؛ حتى تتمكّن من الوصول إلى حالة السلم، وهذه هي الطريقة لتحويل اللاسلام إلى سلام في هذا العالم، فما من طريق آخرَ غيره.

إنّ نظام الطبيعة كله يعتمد على مبدأ التحويـل، وكلّ شيء في عالمنا قد خضع في مرحلة ما لعمليّة تحويل. فالميـاه قبل تحويلها كانت موجودة على

شكل غازين مختلفين؛ فوَفقًا لقانون الطبيعة، فإنّ اللاماء قد حُوِّل إلى ماء، وتنطبق هذه العمليّة على الظواهر الأخرى جميعها في العالم.

دعونا ننظر في مثال آخر، ألا وهو الشجرة؛ إذ يستحيل أن نراها وقد وقفت أمامنا فجأة على شكلها المتطوّر الـذي وصلت إليه؛ فهناك عمليّة الطبيعة، التي من خلالها تُحـوَّل البذرة مرورًا بمراحل إلى شجـرة. يمكننا أنْ نقول: إنّ هناك عمليّة في الطبيعة تحوّل اللاشجرة إلى شجرة، وبعدها فقط تقف الشجرة على الأرض مختالة بعظمة شكلها.

وبالمثل، فإنّ البقرة لا تعطي الحليب إلا بعد أنْ تتمّ عمليّة طبيعيّة للتحوّل داخلها. ويبدو الأمر كما لو أنّ البقـرة مصنع للطبيعة، يحوّل اللاحليب إلى الحليب؛ هذا السائل المغذي.

وبطريقة مماثلة، فإنّ غذاء الإنسان الذي يحتاج إليه للحصول على قوّته لا يأتي إلى حيّز الوجود إلا إذا حُوِّل غير الصالح للأكل إلى صالح للأكل في مصنع الطبيعة. لهذا، يحوّل الجهاز الهضمـي للإنسان الصالح للأكل من هذه الموادّ إلى لحم ودم.

إنّ مسألة السّلام تندرج أيضًا في إطار هذا القانون العامّ للطبيعة؛ فالسّلام أمر حيويّ لوجودنا الاجتماعيّ، ولكن لا يمكننا العثور على سلام مُعَدٍّ في هذا العالم. لذلك، وعلى المنوال نفسه، فإنّ السّلام لا يمكن الحصول عليه إلا من قِبل أولئك الأفراد -أو المجتمع- الذين لديهم القدرة على تحويل اللاسلام إلى سلام. ويمكن أنْ نجد السّلام فقط إذا أظهرنا هذه المقدرة.

والآن، دعونا نـرى كيف يمكن تحويل هـذا اللاسلام إلـى سّلام، ويمكن تلخيص هذه العمليّة في إعطاء ردّ فعل إيجابيّ في حالات سلبيّة.

يعمـل عالمنا علـى مبـدأ المنافسة، وهـذا هـو السبب وراء عـدم غياب التحدّيات والاستفزازات عن أي حالة؛ فلا يمكن لعالمنا أبدًا أن يكون خاليًا منها. إنّ العلاج الوحيد لذلك هو رفض الرضوخ للاستفزاز حتى في الحالات الاستفزازيّة. وعليه، فإنّ السّلام هو نتيجة لهذه الأخلاق أحاديّة الجانب.

لا يمكن أنْ نجد شيئًا جاهزًا في هذا العالم؛ فكلّ شيء لابدّ من خضوعه لعمليّة التحويل، وهذا هو السبب في أننا لا يمكن أبدًا أنْ نجد السّلام الجاهز. هنا، يجب علينا أنْ نستجمع ما نملك من الحكمة لتحويل اللاسلام إلى سلام، وبذلك فقط نستطيع امتلاك السّلام. وتمامًا كما ينطبق هذا المبدأ على حياة الفرد، فإنّه ينطبق أيضًا على المستويين: الوطنيّ والدوليّ.



الفصل السابع: السّلام في الأديان المختلفة

تولي الأديان كلّها أهميّة كبيرة للسّلام؛ كونه يُعَدُّ أكبر مصدر قلق للإنسان. وفي الواقع، فإنّ السّلام هو جوهر الأديان جميعها، والسبب هو أنّه لا يمكن أبدًا تحقيق أيٍّ من أهداف الدين والوفاء بها من غير سلام. فأهداف كلّ دين، من حيث المبدأ، هي التنمية الرّوحانيّة للإنسان، وتحويل كلّ فرد إلى مواطن مسؤول. ولا يمكن لهذا النوع من التعليم والتدريب أنْ يتمّ من غير أجواء سلميّة.

هنا، ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة، أودّ أنْ أعرض بإيجاز تعاليم ديانات مختلفة في هذا الصدد. (وفي الختام، سأعرض مفهوم الإسلام للسلام على نحو أكثر تفصيلًا؛ والسبب هو أنّ العنف في وقتنا الحاضر يقترن ذكره مع ذكر دين الإسلام. ويُعتقد على نطاق واسع أنّ الإسلام يسوّغ العنف، في حين أنه من خلال دراستي للموضوع، فإنّ هذا المفهوم يتعارض معَ الحقائق الفعليّة).

السّلام في الديانة اليهوديّة

يعود تاريخ اليهوديّة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة. فوَفقًا للتقاليد اليهوديّة، عندما غادر بنو إسرائيل مصرَ ووصلوا إلى صحراء سيناء، فإنّ الله أعطاهم الوصايا العشر الأساسيّة لتحكم بقاء حياتهم الاجتماعيّة، وإحدى هذه الوصايا كانت:

(لا تقتل) (سفر الخروج، 20:13)

وصيّة الكتاب المقدس هذه تحظر أنواع العنف جميعهـا، سواء أفرديّة كانت أم اجتماعيّـة، وسـواء أموجّهًا كان العنف ضـدّ مجتمـع المرء نفســه أم ضدّ مجتمع آخر. ولقد أوحى الله تعالى هذا الأمر مباشرة إلى موسى عليه السّلام. وَوَفقًا للتقاليد اليهوديّة، فإنّ هذه الوصيّة تدخل في حكم الأمر المطلق.

وهناك وصيّة أخرى في التوراة تستحقّ الذكـر هنا في هذا الصدد؛ فهي تجسّد التعليم الأخلاقيّ كما هو شائع في الأديـان جميعها، على الرغم من التعبير عنها بطرائق مختلفة. وتتلخّص هذه الوصيّة في كلمات التوراة التي جاءت على النحو الآتي:

«ما هو مكروه (أو مؤذ) لك، لا تفعله لأيّ إنسان آخر».

وفي سياق السّلام، فإنّ هذه التعاليم أساسيّة جدًّا، فمن الواضح أنّنا لن نجد أيّ شخص في هذا العالم يرغب في أنْ يكون ضحيّة للعنف؛ لأنّ العنف بغيض للجميع. وفي ضوء هذا الواقع، فمن الضروريّ أنْ يمقت الإنسان أيضًا ارتكاب أعمال العنف ضدّ الآخرين، ولايجب عليه أن ينغمس في أعمال العنف ضدّ الآخرين تحت أيّ ظرف من الظروف. وما لا شكّ فيه أنّ هذه النصيحة عامّة في تطبيقها؛ فهي ليست موجّهة إلى فرد فقط، بل أيضًا إلى المجتمع كلّه. وبالتأكيد، ومثلما وُضِعَ معيار للسلوك الفرديّ، فقد وُضِعَ معيار للسلوك الاجتماعيّ أيضًا.

وبالرّجوع إلى الآية سالفة الذكر من التوراة، فقد قال باحث يهوديّ، على نحو صحيح:

«هذه هي التوراة كاملة، والباقي ما هو إلا تعليق».

وفي التـوراة، فإنّ أشعيـا، وهو نبيّ من بنـي إسرائيل، يصـف عالمًا من العدالة، في هذا العالم المرغوب فيه بشدّة: «يجب على الناس تحويل سيوفهم إلى محاريثَ ورماحهم إلى مناجل قطاف. ولا يحقّ لأمة أنْ ترفع السيف ضدّ أمّة، وعليهم ألا يتعلّموا الحرب بعد ذلك» (إشعياء 2:4).

تبيّن هذه الآية من التوراة أنّه وَفقًا للديانة اليهوديّة، فإنّ المجتمع الإنسانيّ الأمثل هو المجتمع الذي يدمّر فيه الناس أسلحتهم؛ حيث لا مجال للحرب، وحيث تُبنى الحياة على أساس من السّلام لا العنف.

وتفسّر هذه الآية من التوراة من قبل باحث يهوديّ كالآتي:

«لا يكفي أنْ نأخذ في الحسبان هذه الموعظة السلبيّة بعدم القتل، ولكنْ بتحويل الطاقة البشريّة والجهود المبذولة إلى أفعال سلميّة وبنّاءة».

وبالمثل، فإنّ هناك آية أخرى من التوراة تستحق الذكر؛ فهي تصف وصايا الله المباركة:

«على الذئب والحَمل أنْ يرعَيا معًا، وعلى الأسد أنْ يأكل التبن كالثور، والغبار يجب أنْ يكون غذاء الثعبان. ولا يجوز لهم أنْ يؤذوا أو يفسدوا في كامل جبلي المقدس» يقول الرّبّ. (أشعياء، 65:25)

يخبرنا هذا الاقتباس بلغة رمزيّة كيف يكون المجتمع المرغوب فيه من الله. إنّه مجتمع حيث يعيش الضعفاء والأقويـاء جنبًا إلى جنب من غير الإضرار بمصالح بعضها، وحيث يتمتّع الإنسان بالحقوق نفسها التي يتمتّع فيها كبار الشخصيّـات المهمّة. إنّه مجتمـع يمكن للناس العيش فيـه بسلام من غير الخوف من أذى غيرهم؛ حيث يجد الناس السلم في الآخرين لا العنف.

السّلام في الديانة المسيحيّة

وُلد يسوع المسيح عليه السلام منذ ألفي عام في القدس (فلسطين). وربما يكون أتباعه اليوم أكثر من أتباع أيّ دين آخر.

إنّ تعاليم المسيح منصوص عليها في **العهد الجديد**. وهي تشير إلى أنه قد شدَّد كثيرًا على عبادة الله، وحُبّ البشر، وخدمة الإنسانيّة، والتنمية الرّوحانيّة، والترفّع عن الماديّة، ومعاملة الآخرين بالحسنى، حتى لو لم يستجيبوا، لذا فهذه الفضائل كلها التي لا ترتبط بأيّ طريقة بالحرب والعنف تنبع من امتلاك مجموعة قيم عليا.

ويمكن غرس هذه القيم كلها في المجتمع عن طريق الإقناع، وليس عن طريق الإكراه.

إنّ تعاليم المسيح في **العهد الجديد** تخبرنا بوضوح أنّ السّلام كان مهمًّا في نظره، لدرجة أنّه استمتع بإحلال السّلام بأيّ ثمن. وفي إحدى خطبه، قال:

«طُوبَى لِصَانِعِي السّلام، لأَنَّهُمْ أَبْنَاء اللَّه يُدْعَوْنَ». (5:9)

وهذا يدلّ وَفقًا لتعاليم المسيح، على أنّ المهمة الأكثر مباركة هي في إحلال السّلام في العالم، والسّلام في حياة الأسرة، والسّلام في الحياة الاجتماعيّة، والسّلام في الحياة الوطنيّة، والسّلام في الحياة الدوليّة. ولعلّ قول المسيح هذا هو ربّما تحقيق لهذا العالم السلميّ:

«ليأتِ ملكوتُكَ، لتَكُنْ مَشيئَتُكَ كما في السماءِ كذلكَ علَى الأرضِ». (6:9)

في هذا الاقتباس من **العهد الجديد**، ما سمّي بملكوت الله، يمكن التفكير فيه أيضًا بأنه ملكوت السّلام.

إنّ تعاليم السيّد المسيح تولي أهميّة كبيرة للمحبّة وحسن السلوك، وقد أعرب عن هذا في أحد أقواله في الكتاب المقدس:

«لكنّي أقول لكم أيُّها السَّامعون: أحبُّوا أعداءكم، وأحسِنوا إلى مُبغضيكم». (6:27)

وهذا يعني أنّه يجب أنْ تحبّ الجميع، حتى الأعداء، ويجب أنْ تتّخذ موقفًا سلميًّا نحو الجميع، حتى معَ أولئك الذين اختاروا الإيذاء الجسديّ. إنّه هذا السلوك الجيّد أحاديّ الجانب الذي أعرب عنه برمزيّة:

«مَن لطمك على هذا الخدّ فاترك له الآخر، ومَنْ أخذ رداءك فلا تمنعه أن يأخذ قميصك أيضًا. وكلُّ مَنْ سألك فأعطه، ومَنْ أخذ ما لكَ فلا تُطالبه به». (6:29-30)

وهذا ليس تشجيعًا على أنْ تكون سلبيًّا. إنّه، وبلغة رمزيّة، درسٌ في الأخلاق أحاديّة الجانب. إنّ هذه التعاليم يمكن التعبير عنها كالآتي: أحلل السّلام بأيّ ثمن، لا تقابل العنف بالعنف. فبدلًا من ذلك، قابل العنف بممارسة التمرين أحاديّ الجانب في الصّبر، وتجنّب الصراع، حتى لا تعكّر صفو السّلام.

السّلام في الديانة الهندوسيّة

تستند الهندوسيّة إلى مبدأ اللاثنائيّة، معنى هذا أنّه في هذا العالم، فإنّ الخالق والخلق ليسا كيانين مختلفين، بل هما بالأحرى الحقيقة نفسها تتجلّى في أشياءَ مختلفة وكائنات مختلفة في هذا العالم. وَوَفقًا لهذا المبدأ، فإنّ

الإنسان وأخاه الإنسان همـا وحدة واحدة متشابهة، فليـس هناك فرق بين الواحد والآخر.

وهذا المفهوم يعطي إحساسًا بشعور المشاركـة للكائنات الحيّة جميعها، وينفي مبدأ الآخر. وفي الواقع، فإنّ شعور الآخر يختفي ببساطة. وبهذا، فإنّ ارتكاب أعمال عنف أو عدوان ضدّ الآخرين، من حيثُ المبدأ، هو كارتكابها بحقّ النفس ذاتها. إنّ هذا المفهوم، هو مصدر فكر السّلام في الهندوسيّة.

ولقد سمّاه المؤرّخ البريطانيّ، أرنولد توينبي، مفهوم السّلام: (عِشْ ودع غيرك يعيش). وهذا يعني، أنّنا يجب أنْ نمنح السّلام للآخرين لنحصل عليه في المقابل منهم.

ولد ماهافير Mahavir الشخصية الرابعة والعشرون في تسلسل المرتبة الدينيـة الهندوسيـة (التناسخ) لعائلـة هندوسيّة فـي الهند بعـد تأسيس الهندوسيّة بألفيـن وخمسمئة سنة، وقد أرسى خمسة مبـادئ للدين، وعلى الرغم من أنّ مصطلح (نبذ العنف) ربمّا لم يكـن موجودًا في ذلك الوقت في الكتب المقدسة لهندوسيّة القديمة، فإنّ أوّل هذه المبادىء وأهمّها كان (أهيمسا Ahimsa)، الذي يعني عدم الإصابة. وَفقًا لهذا المبدأ، فإنّ العنف والعدوان من أيّ نوع هو أمر خطأ تمامًا. ويمكن تلخيص هذا الاعتقاد في هذه الكلمات: قتل كلّ ذي إحساس خطيئة.

لقد اعترف الزعماء الدينيين الهندوس بـ (ماهافير) على أنه الشخصية الرابعة والعشرون في تسلسل المرتبة الدينية الهندوسية (التناسخ). وبهذه الطريقة، فإنّ مفهوم أهيمسا قـد أصبح أيضًا جزءًا مـن الهندوسيّة. وفي القرن العشرين أيضًا، كان هناك المثال الآخرُ الكبير، وهو المهاتما غاندي،

المصلح الهندوسيّ ذو السمعة العالميّة، الذي فسّر كلمات (باغواد غيتا، أحد النصوص الدينية الهندوسية) في ضوء مبدأ عدم اللجوء إلى العنف، وأطلق حركة حريّة ملتزمة تمامًا بهذا المبدأ.

وقد وضّحت الموسوعة البريطانية (1984) الدرجة التي كان فيها المهاتما غاندي من دعاة السّلام بالقول: «لقد كان غاندي أول من فسّر أهيمسا على نحو إيجابيّ تحت مظلّة الالتزام الاجتماعيّ».

التسامح بصفته إحدى القواعد الأساسيّة في الديانة الهندوسيّة

إنّ مفهوم التسامح هذا يصل إلى الحدّ النهائيّ لتشجيع الاعتقاد بحقيقة الأديـان جميعها. ووفقا للنصـ المذكور أعلاه، فـإنّ كلّ مسـار دينيّ يؤدّي نحو الوجهـة نفسها: الحقيقـة. فعندما قـال أحد شخصيـات النص: (كلّ دين صحيح)، فقد كرّر بهـذا الاعتقاد الهندوسيّ وعلـى نحو صحيح. ففي الهندوسيّة يمكن إعطاء كلّ تقليد دينيّ اعترافًا متساويًّا.

وقد أوردت موسوعة بريتانيكا تحت عنوان (الهندوسيّة):

«إنّ الهندوسيّة تتضمّن أشكال الاعتقاد والعبادة جميعها من حيثُ المبدأ، من غير فرض انتقاء أيّ منها أو استبعاده».

وبعبارة أخرى، فإنّ هذا المفهوم العامّ للتسامح يرشدنا إلى كيفيّة العيش في سلام مَع الآخرين، وينبغي لنا ألا نتبنّى العنف تجاه أيّ شخص آخر.

وكما نَعُدّ أنفسنا على حقّ، فعلينا بالمقابل أنْ نَعُدّ الآخرين على حقّ أيضًا.

ومن حيثُ المبدأ، فإنّ اللجوء إلى العنـف تجاه أيّ مجموعة بشريّة يُعَدّ غير قانونيّ.

السّلام في الديانة البوذيّة

تعـدّ البوذيّة ديـن إلحاد، علـى خلاف الديانـات الأخرى؛ فهـي لا تغذّي الاعتقاد بوجود خالق بصفته مفهومًا مركزيًّـا. وبدلًا من ذلك، فإنّ النظام البوذيّ يستند إلى مجموعة من المبادئ الأخلاقيّـة. ويمكن تسمية الأسس البوذيّة فلسفةً أخلاقيّة، أو طريقة أخلاقيّة للحياة.

لا يوجد توثيـق تاريخي لحياة بـوذا غوتام (سيـدارت غوتـام)، مؤسّس البوذيّة، ولكن يُعتقد أنّه وُلِد في شمال الهند عام 560 قبل الميلاد. وعندما بلغ سنّ الرشد، رأى بعض مشاهد البؤس البشريّ. ولما كان شخصًا حسّاسًا، فقد بدأ يتأمّل في أسباب الألم والمعانـاة، وكرّس بعدئذ نفسه بهدف إنهاء الألم والمعاناة في الحياة البشريّة.

وبعد مدّة طويلة من التأمّل والتفكير العميق، صاغ بعض المبادئ الأخلاقيّة.

ولأن هدفه الرئيس في الحياة كان إنهاء البؤس البشريّ، فقد علّق أهميّة قصوى على حقيقة أنّه ينبغي للإنسان أنْ يحرّر نفسه من أنواع الرّغبات كافة؛ لأن هذه الرّغبات كافة هي التي تقود الإنسان إلى أنواع الشرور جميعها، بما في ذلك العنف. وقـد كانت المبادئ التي وضعها لتحكـم حياة الإنسان كما يأتي:

على الإنسان أنْ يتخلّى عن الرغبات جميعها، وأفكار الشهوة جميعها، والمرارة،

والقسوة. وعليه ألا يضرّ كائنًا آخرَ، ويجب عليه أيضًا أنْ يمتنع عن أعمال القتل كلّها. ولابدّ من أن يتولّى الإنسان منصبًا لينفع الآخرين ويدرأ الضرر عنهم.

فمن حيثُ المبـدأ، ليس هناك أيّ مـكان للعنف في البوذيّـة، ولأنّ هدفَ البوذيّة في الأساس إصلاحُ الشخصيّـة، فإنّ هذا لا يمكن أنْ يتحقّق إلا من خلال السعي بجد ضدّ رغبات النفس، بدلًا من ارتكاب العدوان ضدّ الآخرين. لذلك يصح القول: إنّ العنف شيء غريب على المعتقد البوذيّ. وفكريًّا، فإنّه لا علاقة مباشرة للبوذيّة بالعنف.



الفصل الثامن: السّلام في الديانة الإسلاميّة

ما لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم كتاب للسلام، وليس كتابًا للحرب أو العنف. ويمكن الحكم على هذا من حقيقة أنّ آيات القرآن جميعها مرتبطة على نحو مباشر أو غير مباشر بالسّلام؛ فاستهلاليّة القرآن هي:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

وقد تكرّرت هذه البَسْملة في القرآن الكريم ما لا يقلّ عن 114 مرّة، وهذه إشارة إلى أنّ أعظم صفة للخالق الأسمى الذي أرسل هذا الكتاب هي الرّحمة. وفي الواقع، فإنّ موضوع هذا الكتاب المقدّس كلّه هو رحمة الله الشاملة.

فالجزء الأكبر من هذا الكتاب المقدّس يدعو إلى السّلام بقوّة، سواء على نحو مباشر أو غير مباشر، ومن آيات القرآن الكريم الكثيرة، نجد هناك أربعين آية تتعامل معَ أوامر شنّ الحرب، في حالة الدّفاع عن النفس فقط، وهذا يشكّل ما هو أقل من 1%، ولنكون أكثر دقّة، فإنّ النسبة هي 0,6% فقط.

إنّ أولئك الذين يقبلون القرآن كتابًا لله، سيُعَدّون مؤمنين حقيقيين فقط عندما يتّبعون الأحكام الواردة فيه، ليصبحوا من محبّي السّلام بالمعنى الكامل للكلمة.

وعليهم ألا يشركوا أنفسهم في أيّ عمل عنف، وتحت أيّ ظرف من الظروف. ومن أجل إجراء دراسة هادفة لهذا الموضوع، لابدّ لنا من التفريق بين الإسلام والمسلمين. فليس بالضرورة أن يكون عمل المسلم مستمدًّا من تعاليم الإسلام. وفي واقع الأمر، فإنّه يجب الحكم على ممارساته وَفقًا

لمعايير الإسلام -وهـي عقيدة- بدلًا مـن الحكم على الإسـلام من خلال ممارسات المسلم. فأولئك الذين هجروا تعاليم الإسلام لا يمكنهم الادعاء بأنّهم إسلاميّون في سلوكهم، حتى لو كانوا يعدّون أنفسهم أبطال الإسلام. فلا يكون المسلمون مسلمين إلا عندما يتّبعون التعاليم الأساسيّة لديانتهم.

السّلام من أسماء الله تعالى

لقد أورد القـرآن أسماء الله الحسنـى الكثيرة، التي كان مـن بينها اسمُ السّلام. إنّ الله يحبّ السّـلام والأمن لدرجة أنّه اختـار السّلام واحدًا من أسمائه. وهذا يعني أنّ الله تعالى تجسيد للسلام بنفسه.

وقد فسّر الخطابيّ هذه الآية بقوله:

«إنّ الله هو الكيان الذي يستمدّ الناس منـه الأمن والأمّان، الذي يأخذ الناس منه تجربة السلم لا العنف». (القرطبيّ، الجزء 18، ص 46)

وقد وضع الله المعايير العليا لتحقيقها؛ أي إنّه عندما يعتمد تعامل الله معَ البشر على أساس السلم والأمن، فينبغي للإنسان بعد ذلك أيضًا التعامل معَ غيره من البشر بطريقة مسالمة، لا قسوة فيها ولا عنف.

لا تطرّف

ولقد صدر الأمر الآتي في الجزء الرابع من القرآن الكريم:

﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ النساء:171.

ووردت النقطة نفسها في الحديث الشريف؛ حيث قال رسول الإسلام ﷺ:

«إياكم والغلوّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ». (النسائيّ، ابن ماجة، مسند أحمد)

إنّ الغلوّ يعني التطرّف والمبالغة. وطريق التطرّف هي طريق غير صحيحة. مهما كانت الظروف؛ لأنّها تعارض روح الديانة. وفـي الواقع، فإنّ التعرّض للتطرّف يبلغ ذروته في أوقات الحرب والعنـف. فأولئك الذين يعانون ميولًا متطرّفة يبقون غيـر راضين عن مسـار الاعتدال؛ لأنّ هـذا يجرفهم بعيدًا عن المثاليّة. وهذا هو سبب انحدارهم نحو العنف بهذه السهولة، وهم على أتمّ الاستعداد وأكثر مـن أيّ وقت مضى لبدء العدائيّـة تحت دعوى تحقيق أهدافهم.

ومن الجدير بالذكر أنّ الاعتدال، وهو نقيض التطرّف، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسّلام، فعندما يملك الناس فضيلة الاعتدال، فهم بالضرورة سيفكّرون وَفقًا للسلام، وسيتّصف نضالهم بالسلميّة. فأينمـا وُجد الاعتدال وُجدَ السّلام، والعكس صحيح.

وفي تناقض واضح معَ هذا، فإنّ موقف المتطرّف سيؤدّي به قريبًا جدًّا إلى المواجهة والعنف؛ فالتطرّف والعنف مترابطان بوضوح، وهذا هو السبب الذي عَدّت فيه الديانة التطرّف شيئًا بغيضًا. ويمكن القول: إنّ العنف هو اسمٌ آخرُ للتطرّف، وأنّ الاعتدال هو الامتناع عنه.

قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعًا

قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ

رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ المائدة: 32.

إنّ الجريمة فعل رهيب حقًّا؛ فقتل الإنسان غير جائز إلا عندما لا يتوافر علاج آخرُ لدرء الخطر الذي يمثله على السلم الاجتماعيّ، وقتل النفس الواحدة بغير وجه حقّ كقتل الناس جميعًا، والفرق بينهما يكون في الدرجة لا في الطبيعة؛ فقتل نفس واحدة لا يقلّ بشاعة عن مقتل البشر جميعهم.

وقد يبدو مثل هذا القتل من غير جزاء مناسب مسألة بسيطة، لكنّ مثل هذا الفعل يحطّم تقاليد احترام الحياة كلّها.

والآية أعلاهُ من القرآن تؤكّد أهميّة السّلام والأمن في الإسلام؛ فإذا قُتِلَ شخص ما من غير وجه حقّ فعلى الإسلام أنْ يطالب بتحرّك المجتمع كلّه على نحو كبير في وجه هذه الجريمة.

وأن يعملوا على نحو متّحد لاستعادة حالة من السّلام والأمن، وينبغي أنْ تعامل على أنّها مسألة عظيمة الأهميّة، كما لو كانت البشريّة كلّها تتعرّض للهجوم.

إطفاء نار العنف

وقد جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ المائدة: 64.

إنّ هذه الآية من القرآن تدل على خطّة الوجود المخصوصة بخالق هذا العالم، وهي خطة تقوم على مبدأ السّلام، وهذا يعني أنّه كلّما قرّر أحد

جانبيّ المعارضة العمل على تأجيج نار حرب، فينبغي للآخر أنْ يحاول إخمادها باللجوء إلى إستراتيجيّة سلميّة لمنع العنف من الانتشار. ولا ينبغي أبدًا أنّه إذا ما انغمس جانب في أعمال العنف، كان على الآخر أنْ يحذو حذوه. فالطريقة الصحيحة والمرغوب فيها لنعيش حياتنا في هذا العالم ليس بمواجهة القنابل بمثلها، وإنّما بنزع فتيلها وإبطال مفعولها. وينبغي أن يتمّ هذا في البداية. فإذا أردنا الرّوح الحقيقيّة للتعليم القرآنيّ الكريم، فعلينا إدراك أنّ التصدي للقنبلة بأخرى هو طريق الشيطان. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الطريقة التي يؤيّدها الله هي في تحييد القنبلة.

من الطبيعيّ جدًّا لأيّ مجتمع ما أنْ يواجه بعض المواقف السيئة؛ فيستحيل على أيّ جماعة من البشر أنْ تكون قد خلت في حياتها تمامًا فيما مضى من أحداث غير مرغوب فيها. وبناءً على ذلك، فإنّ الحلّ الفعليّ للمشكلة ليس في وضع حدّ للأحداث غير السارّة في حدّ ذاتها، وإنّما في الامتناع عن السماح بتفاقم الأمور، وهو ما يحدث إذا التقى حدثان من الأحداث غير السارّة بعضهما مع بعض. ومرّة أخرى، أودّ أنْ أؤكّد مجدّدًا أنّ القنابل لا ينبغي أن تُواجَه بالقنابل، وبالامتناع عن العنف فإنّنا نستطيع أنْ نحدّ من انتشار الآثار المدمّرة للاحتكاك الاجتماعيّ بوصفه حلًّا وحيدًا ممكنًا.

الحرب للدّفاع

جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: 39.

هذه وليست مجرّد أوامر قرآنيّة موجّهة للمؤمنين من المسلمين، بل بيان

لقانون دوليّ. لقد وضّحت الآية بوضوح أنّ الحرب جائزة فقط من أجل صدّ أيّ عدوان سافر، وهي تُشنّ هنا دفاعًا عن النفس. أمّا الأشكال الأخرى للحرب جميعها فتأتي تحت عنوان العدوان، ولا مكان شرعيّ للمعتدين في هذا العالم. فوَفقًا لهذه الآية، لا يوجد أيّ مبرّر لأيّ حرب أخرى غير الدفاعيّة، عندما يُضطرّ أحد إلى القيام بذلك.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم، فإن الحرب الدفاعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلانها رسميًّا، ومن قِبل حكومة شرعيّة. أمّا المنظمات غير الحكوميّة فلا تملك الحقّ في شنّ حرب تحت أيّ ذريعة كانت. وفي ظلّ هذه التعاليم، يمكننا أنْ نستنتج وَفقًا لقوانين الحرب المنصوص عليها في القرآن أنّ الحروب كلّها، باستثناء الحرب الدفاعيّة التي أصبحت لا مفرّ منها، غير مشروعة. ومثال ذلك: حرب العصابات، والحرب بالوكالة، والحرب غير المعلنة، والحرب العدوانيّة، فكلّها غير مشروعة في الإسلام بلا ريب.

إنّ الحرب فعليًّا عمل وحشيّ، ولا يوجد مغزى إنسانيّ بشأنها بتاتًا. وفي الواقع، وَوَفقًا لمبادىء محدّدة ومعروفة للإسلام، فإنّ السّلام هو القاعدة، أما الحرب فهي الاستثناء النادر.

إنّ السّلام شيء يمكن أنْ نختاره في الظروف جميعها، في حين لا نتّخذ قرار شنّ الحرب إلا في أوقات الطوارئ لأغراض الدفاع، وعندما يصبح لا مفرّ منه، وحين تكون الإستراتيجيّات السلميّة لتجنّب المواجهة جميعها قد باءت بالفشل.

إقناع سلميّ لا إكراه

في موضوع الجهاد، يخاطب القرآن المؤمنين بما يأتي:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ الفرقان: 52.

كما نعلم، فإنّ القرآن الكريم كتاب فكريّ، فهو ليس بندقية ولا سيفًا. ولذلك، فإنّ (الجهاد) بمفهوم القرآن يعني فقط نقل الأفكار من القرآن الكريم إلى الناس. وهذا يعني أنّ علينا أنْ نناضل بسلام لجعل أفكار القرآن الكريم مفهومة من خلال تقديمها على شكل حجج منطقيّة.

إنّ الآية المذكورة أعلاهُ أوضحت أنّ ما يسمّى الجهاد في الإسلام يستلزم فقط نوع النضال السلميّ الذي لا علاقة له بالعنف. الكلمة العربيّة **(الجهاد)** مشتقة من الجذر **(جهد)** الذي يعني السعي، والنضال من أجل هدف أو غاية، وبذل النفس إلى أقصى درجة ممكنة لتحقيق هدف المرء. وهذا هو المعنى الأصليّ لـ **(الجهاد)** في العربيّة.

إنّ هذه الآية تظهر أنّ الجهود السلميّة تتفوّق على جهود العنف كثيرًا. وكلما لجأ الإنسان إلى أسلوب العنف، فإنّ نطاق جهوده يصبح محدودًا جدًّا. وفي اللجوء إلى العنف، ليس أمامنا إلا السيف والبندقيّة، في حين نستخدم أنواع الأشياء المتوافرة جميعها لتحقيق هدفنا بالطرائق السلميّة. وحتى القلم في الغرفة المغلقة يمكن أنْ يخدم غرضًا كبيرًا.

الالتزام بالحقيقة معَ الصّبر والمثابرة

يخبرنا القرآن أنّ الذين يمكنهم تجنيب أنفسهم الخسارة، وتحقيق الحياة الناجحة، هم:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ العصر: 3.

ومن المؤسف أنّ من يلتزم مسار الحقيقة بنفسه، أو يدعو الناس إلى قبولها يُرفض من الآخرين على الدوام. فالمقاومة التي عليه أنْ يواجهها كبيرة جدًّا. وما على محبّ الحقيقة فعله هنا هو ممارسة الصبر الذي لا حدود له، وعليه أنْ يتحمّل بكلّ ثبـات المشاقّ جميعَها من غير أنْ يحـاول تحميل مسؤوليّتها لغيره.

إنّ الصبر اسمٌ آخرُ للسلـوك اللاعدوانيّ، ويعني أنّـه ينبغي للذي يدافع عن الحقيقة عدم مواجهة العنف بمثله، مـا يتطلب التزامه بالسُّبل السلميّة التزامًا أحاديّ الجانب.

فمن يتبنّى طريق الحقيقة، لابدّ له من هجر العنف، فهما لا يجتمعان معًا. ومن يريد اختيار الحقيقة لابدّ له من التخلّي عن العنف؛ فالعنف، أيًّا كانت أسبابه أو مسوّغاته أو ذرائعه، يظلّ عنفًا. وأشكال العنف جميعها خبيثة بلا فرق، ولا يوجد أيّ مبرّر كان يمكنه أنْ يلغـي عواقب العنف المدمّرة أو يحدّ منها. ومن مساوئ العنف أنه يستثير السلوك الذي يسعى إلى محاربته ويعزّزه؛ فبدلًا من تقليص الشرّ فإنّ العنف يعمل على تكاثره.

ويبقـى ارتكاب العنـف باسم الحقيقـة نفيًا للحقيقـة، أمّـا أولئك الذين يمارسون العنف باسم الحقيقة فهم يثبتون فقط أنّ قضيّتهم بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة، ومحـبّ الحقيقة لا يكون أبدًا محبًّـا للعنف، ومن يحبّ العنف بالتأكيد ليس محبًّا للحقيقة، حتى لو كان يَعُدّ نفسه بطلًا للحقيقة.

اعتماد نهج المصالحة

لقد سادت حالة الحرب بين قريش والمسلميـن حين كان الرسول محمد ﷺ يدعو للإسلام؛ نتيجة لعدوان قريش على خصومها. وفي هذا السياق، فإنّ الأوامر التي وردت في القرآن الكريم بهذه المناسبة هي:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: 61-62.

تدلّ هذه الآية من القرآن الكريم على أنّ السّلام مرغوب فيه في الإسلام إلى أقصى حـدّ ممكن، حتى لو لم يكـن إحلال السّلام إلا مـن خلال تكبّد الأخطار، فإنّه ينبغي أنْ تكون هذه طبيعة الحال من غير تردّد، كما شرع في القرآن الكريم.

وإذا قُدّم أيّ عرض للصلح من الخصوم في أثناء الحرب، فيجب قبولها من غير أيّ تأخير، حتى لو افترضنا أنّ هناك خوفًا من بعض الخداع في عرض السّلام، فإنّنا يجب أنْ نقبل العرض على أمل أنّ الله سوف يكون دائمًا إلى جانب محبّي السّلام لا المضلّلين.

وحقيقة أخرى تظهر هنا، في هذا العالم، وهي أنّه لا يمكن إحلال السّلام

إلا من خلال أولئك الذين يملكون قدرًا كبيرًا من الشجاعة، وفي العالم الحاليّ فإنّ مشكلات تنشأ حتمًا بين جماعات مختلفة؛ لعدم وجود حالة إنسانية مثاليّة على الإطلاق. فالجميع في مرحلة ما في حياتهم يواجهون بعض الظلم وسلب ما ينتمي إليهم من غير وجه حقّ. في هذه الحالات، يمكن لمثل هؤلاء الأفراد فقط إحلال السّلام بارتفاعهم فوق الاعتبارات كلها، وازدراء الذرائع جميعها للدخول في انتقام عنيف. والحقيقة هي أنّ الشجاع، والشجاع جدًّا هو فقط من يستطيع إحلال السّلام في هذا العالم. وأولئك الذين يعانون نقصًا في الشجاعة سيواصلون الصراع، ومن ثَمّ لن يسمحوا بإعادة كتاب تاريخ العالم وَفقًا لشروط السّلام المباركة.

لا فساد على هذه الأرض

يشير القرآن في الآية الآتية إلى نوع معيّن من الشخصيّة، التي أسمت نفسها بالمصلح:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: 11.

ويشير هذا إلى أولئك الذين يدّعون أنّهم يمضون في العمل الإصلاحيّ، ولكنْ بأسلوب غير صحيح، كون نتيجة أفعالهم هي الفساد والانحراف. و(الفساد) هنا يعني أنّ أعمالهم تقود إلى الاشتباك معَ الآخرين ومواجهتهم، ممّا يوجِد جوًّا من الكراهية المتبادلة، وتتقوّض الأخلاقيّات خلال هذه العمليّة ويسود التفكير السلبيّ، ويشار إلى هذه العوامل كلها بأنها إشاعة الفساد في الأرض؛ لأنّها تدمّر السلم الاجتماعيّ كلّه. وفي نهاية المطاف، يكون أعضاء المجتمع على خلاف أبديّ معَ بعضهم.

إنّ هذا الدرس القرآنيّ يدل على أنّه لا يكفي للممارسة أنْ يكون لدى الإنسان هدف جيّد، ليكون على صواب، ويدلّ أيضًا على أنه يجب فحص الآثار الجانبيّة الناتجة التي قد تنشأ عن مثل هذا النوع من الإصلاح.

ولو أنّ هذه الأعمال نفسها أنتجت التوتّر والصراع - مع أنّ هدفها هو الإصلاح- فإنّه سيُنظر إلى أصحاب هذه الأعمال بأنهم ناشرون للفساد، وسوف يُدانون على أنّهم مجرمون لا صانعو سلام ومصلحون وخُدّام للإنسانيّة.

إن الإصلاح الحقيقي لا يكون حقًّا كذلك، إلا إذا انحصر في مجال السّلام والإنسانيّة. إضافة إلى أنّه أيّ عمل سيُدان حتى لو نُفّذ باسم الإصلاح، على أنّه يخلّ بالأمن، أو الأسوأ من ذلك، يقود إلى خسائر في الأرواح أو تدمير للممتلكات. وينبغي لمَهَمَّة الإصلاح أن تؤدّي إلى الإصلاح، أمّا إذا أدّت إلى الفساد فإنّ هذه الحركة الإصلاحيّة بحدّ ذاتها شكل من أشكال الانحراف الاجتماعيّ، مهما كانت الكلمات البراقة التي قد تستخدم في وصفها.

الرزق الأكبر

لقد أورد القرآن مبدأ الحياة الآتي:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه: 131.

هناك طريقتان مختلفتان جدًّا في الحقيقة ليحيا كلّ إنسان حياته الذاتية؛ أمّا الأولى؛ فهي موجّهة كليًّا نحو العالم الماديّ، فلن تجد حدًّا لطموحات الذين يسعون إلى النجاح انطلاقًا من الثروة والمكانة الدنيويين؛ لأنّه

ومادامت أهدافهم دنيويّة بحتة، فسيجدون أنّ كثيـرًا ممّن حولهم يمتلكون أكثر ممّا لديهم، ولا مفرّ من مثل هذه المفارقات. لذلك، فإنّ الإنسان الذي يعيش لأجل ماديّة الأشياء سيكتشف أنّه يعيش في حرمان دائم. وهنا، تنتج مشاعر السخط والغيـرة، التي تتراكم معَ الوقت على شـكل تنافس وانتقام وعنف مرافق لكلّ هذا.

أمّا الطريقة الثانية فيمـا يتعلق بالفرد: فهـي أنْ يعيش حياتـه معَ شعور الإنجاز، ومثل هذا الشخص سيكون راضيًا؛ فشعـوره بالإنجاز سيمنعه من تغذية الكراهية ضدّ الآخرين، أو الانخراط في أعمال العنف. ولكنْ من هم أولئك الذين مُنحوا بركات هذا الشعور؟ إنّهم بكلمات القرآن الكريم الذين يتلقون النعم من الله، فنعمـة الله تعني الاقتناع باكتشـاف الحقيقة؛ أي إنّ وجودهم الذي باركه الخالق هـو أثمن من كنوز العالم كلـه؛ ذهبه وفضّته. فعلى كلّ فرد أن يحيا حياته بوعي تامّ بأنّ مصدر تغذيته الفكريّة والروحانيّة هو الكون بأسره.

فالذي يصبح متلقّيًا لنعم الله في هـذا العالم يتسامى لدرجة أنّ الأشياء الماديّة مثل الثروة والسلطة تصبح عديمة الأهمية فـي نظره، وتحوّله هذه النفسيّة من تلقاء نفسها إلى شخص محبّ للسلام، فالكراهية والعنف يبدوان له بلا معنى، فليس لديه الوقت لمثل هذه العواطف السلبيّة أو التخطيط للقيام بأعمال عنف. وعليه، فإنّ الذي ينال العظيم يستحيل أنْ يسعى نحو الوضيع، ولن ينخرط بناءً على هذا في أعمال العنف.

إسكات التذمّر مباشرة

إنّ عقليّـة المتذمّر عدوانيّة؛ فهـي تخنق التفكير الإيجابـيّ، وينجم عنها التفكير السلبيّ الذي بلا شكّ هو السبب الرئيس وراء الشرور كلها في معظم الحالات؛ إذ يؤدّي إلى إحساس دائم بالظلم، سواء أحقيقيًّا كان أم وهميًّا، ما يجعله السبب وراء أيّ أعمال عنف تحدث.

لقد وُضعت سنّة الخلق في هذا العالم الحاضـر بطريقة لا مفرّ فيها من الاشتكاء والتظلّم. وبناءً علـى ذلك، فإنّه يجب رفض فكـرة حدوث التذمر مباشرة، بمجرّد أنْ تتّخذ شكلها في تفكيرنا. فالتذمّر إذا أشير إليه وأُحيِيَ باستمرار، فإنّه يصبح راسخًا في الذاكرة، بحيث لا يكون هناك مجال لتنحيته لاحقًا. وفي مثل هذا الموقف، فإنّه من الحكمة وأد التذمّر في مهده، وإذا تعذّر ذلك، فإنّ التذمّر سيصبح تدريجيًّا جزءًا دائمًا من شخصيّتك. وعليه، فإنّ تفكير المرء يكسبه طابعًا سلبيًّا، سوف يظهر الآخرون فيه مثل الأعداء. وإن سنحت له الفرصة، فإنّ المُتشكي لن يتردّد في ممارسة العنف ضدّ أهداف شكواه وتذمّره، حتى لو كان هو نفسه يعاني نتيجة لذلك.

ما الصيغـة لوضع حدّ للتذمّـر منذ البدايـة؟ إنّ ذلك يكـون بالتعمّق في التفكير في الآية الآتية من القرآن الكريم:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى: 30.

هذا يعني أنّه كلّما كان لدينا سبب للشكوى ضدّ أيّ شخص، يجب أنْ نوجّه اللوم لأنفسنا بداية؛ إذ ينبغي لنا حينئذٍ أنْ نحاول تفسير شكوانا بطريقة يقع

اللوم من خلالها علينا. فعندما نتوصّل إلى فهم أنّنا ارتكبنا خطأً ما، حينئذ علينا العمل على تصحيح أوجه القصور عندنـا، بدلًا من إضاعة الوقت في الاحتجاجات والتذمّر ضدّ العدوّ المفترض.

رحمة للعالمين

لدى القرآن ما يقوله هنا لرسول الإسلام:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: 107.

لقد أدّى ظهـور نبيّ الإسلام إلى جعـل رحمة الله تبدو واضحـة للبشريّة جمعاء؛ فمن خلاله أرسل الله هذه المبادئ التـي إن اختارها الإنسان فإنه يعيش في دار السّلام والأمن الأبديّة، ومن خلاله كُشِف عن مثل هذه التعاليم التي كان من شأنها أنْ تحوّل مجتمع الإنسان إلى مجتمع سلميّ. ولأوّل مرّة في التاريخ، قدّم نبيّ الإسلام عقيدة كاملة تقوم على مفهوم السّلام.

لقد قدّم لنا صيغة لبناء حيـاة صحيّة عن طريق نبـذ الكراهية والعنف، ومن خلاله دبّ الحراك في ثورة جعلت مـن الممكن بناء مجتمع سلميّ من خلال تجنّب الحـرب والمواجهة. وعلى الرغم من أنّ نبـيّ الإسلام كان قد اضطرّ إلى شنّ غزوات قليلة، فإنّها كانت قصيرة، حتى إنّنا نستطيع وصفها بالمناوشات بدلًا من الحرب الشاملة. سيكون من الصحيح تمامًا أنْ نقول: إنّ نبيّ الإسلام ابتدأ ثورة، على الرّغم من عظم شأنها ونطاقها وتداعياتها، لكنها كانت غير دمويّة تقريبًـا. ولقد أعطى السّلام سمـة العقيدة أو نظام الحياة، وجعل من الواضح لأتباعه أنّ العنف وسيلة للتدمير، أما السّلام فهو

السبيل للبناء والتشييد. لقد عَدّ الصّبر أعظم شكل من أشكال العبادة، كما عَدّ الفساد الجريمة الأكبر كونه يزع يقلق نظام الطبيعة الآمن.

أضف إلى هذا أنّ النبـيّ أمر المؤمنيـن أن يُحيّوا بعضهـم بعضًا بعبارة (السّلام عليكم)، وفي هذا دَلالة على أنّ العلاقاتِ المتبادلةَ ينبغي أنْ تبنى على السّلام والأمن. لقد أخبر النبيّ المؤمنين بـأنّ الفوز بالآخرة يجب أنْ يكون هدفًا لنضال الإنسان، وبهذه الطريقة تتبدّد الفكرة القائلة: إنّ التقدّم الدنيويّ يجب أنْ يكـون هدف الإنسان في الحياة؛ لأنّ هـذا هو ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى أنواع المواجهة والعنف جميعها. وكانت صيغته لعيش أفضل تتمثّل في جعل الشخص نفسه مفيدًا للآخرين، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فعلى الأقلّ عدم الإساءة إليهم، وعدم عَدّ أيّ شخص عدوًّا، فحتى العدوّ لابدّ له من أنْ يحظى بمعاملة عادلة؛ لأنّه حينئذ فقط يدرك المرء أنّ العدوّ كان صديقًا محتملًا: (العدو) دائمًا في داخله قابليّة أنْ يكون صديقًا.

السّلام في الظروف كافة

لقد كان رسول الإسلام من محبّي السّلام لأقصى الحدود، ولطالما حاول خصومه أنْ يستدرجوه إلى الحرب مرارًا وتكرارًا، لكنه كان يتجنّب التورّط في كلّ مرّة. ومعَ ذلك، وفي بعض الأحيان نظرًا إلى العدوان من جانب واحد، لم يكن أمامه من خيار سوى القتال دفاعًا عن النفس، ولمدّة محدودة.

(بَدْرٌ) كانت معركة من هذا القبيل.

ويظهـر التاريخ أنّـه عندمـا كان الجيشان مـن كلا الجانبيـن مستعدّين للمعركة، هبط جبريل – ملاك الله – على النبيّ ﷺ وقال له:

«السّلام يقرئك السّلام، ويخصّك بالتحية والإكرام».

وعند سماع هذا، أجاب نبيّ الإسلام: «اللّه هو السّلام، السّلام هو منه وإليه هو السّلام».

وهذا الموقف يدلّ على أنّ نبيّ الإسلام حتى في هذه المرحلة، كان محبًّا للسلام. حتى في أوج تلك المرحلة، فإنّ عقله كان خاليًا من مشاعر الكراهية والعنف، بل كان يفكر من منطلق السّلام والأمن، وكان قلبه ينبض بالرّغبة في نشر هذه الظروف في العالم بعون من اللّه تعالى. فالرّجل الحقّ هو الرجل الذي يستطيع أنْ يفكر في السّلام حتى في أوقات الحرب، والذي يمتلئ قلبه بمشاعر السّلام والأماني الطيبة، حتى خلال الطوارئ على ساحة المعركة.

وهذا ليس بالأمر العاديّ المألوف؛ ففي عالم الواقع يعدّ هذا المثال الأعلى للتفكير الإيجابيّ. وكما نعلم جميعًا، فإنّ الحرب هي الأكثر سلبيّة في الأحداث جميعها؛ فالنبيّ الذي كان يدير المعركة، وعلى وشك البدء بالحرب، نطقت شفتاه كلمات السِّلم والأمن بدلًا من الحرب والعنف. وهذا مؤشّر على فضيلة الإنسان الأعلى؛ فالأنبل شخصيّة بين الناس هو الذي يفكّر في السّلام وسط العنف، ويخطّط للمصالحة حتى في زمن الحرب.

مواطنون مسالمون

وَفقًا لحديث نبوي شريف، يُعرّف نبيّ الإسلام المؤمن على النحو الآتي:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ».
(الترمذيّ، والنسائيّ، وابن ماجة، ومسند الإمام أحمد)

هناك طريقتان ليحيا الإنسان حياته في المجتمع؛ الأولى أنْ يعيش بسلام بين من حوله، والأخرى الاستمرار في العداء معَ الآخرين. وَوَفقًا لهذا الحديث، فإنّ الطريق إلى المؤمنين والإيمان تكون بالعيش السلميّ بوصفنا مواطنين في المجتمع؛ فلا ينبغي لأحد أنْ يشكّل أيّ خطر على ممتلكات الآخرين، أو حياتهم، أو أعراضهم. فلاينبغي للمرء أن يتّخذ طريق العنف تحت أيّ ظرف من الظروف.

كيف ينبغي أنْ نعيش الحياة بحيث يبقى أعضاء المجتمع سليمين آمنين من ظلم الآخرين؟

علينا المحافظة على الاعتدال، بغضّ النظر عن وجود أسباب للتذمّر. وينبغي أنْ يكونوا قادرين على دفن تذمّرهم في قلوبهم الذاتية، بدلًا من صبّه على آخرين. إنّ المجتمعَ الذي يسوده مثل ضبط النفس هذا مجتمعٌ يتمتّع أفراده بالشعور بالأمان. وفي الواقع، فإنّ المجتمع السلميّ هو الإطار المثاليّ لتحقيق التنمية البشريّة الإيجابيّة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ المجتمع الذي يحفّه العنف هو مجتمع حيوانيّ وليس مجتمعًا بشريًّا.

إنّ محبّة السّلام فضيلة إنسانيّة نبيلة، في حين ينحطّ حبّ العنف بالإنسان وباستمرار من الأخلاقيّة العالية إلى مستوى الحماقة المتدنيّة.

لا مواجهة معَ العدوّ

يقول نبيّ الإسلام:

«أيها الناس، لا تمنّوا لقاء العدو، وسلوا اللّه العافية».

وهذا يعني أنّه إذا أصبح شخص ما عدوّنا، فلا ينبغي أنْ نتحوّل بالضرورة ضدّه ونبدأ القتال معه. فرغم عدائيّته، ينبغي لنا أنْ نختار تجنّب الاحتكاك معَه؛ لمنع الصراع معه.

(اسألوا الله العافية)، معناها أنْ نختار طريق السّلام بدلًا من المواجهة، فنحصل على عـون الله للمضي فيه. ولاينبغـي للمؤمن ألّا يدعـو الله بمثل الدعاء الآتي: (يا الله، دمّر العـدوّ)، بل ينبغي أنْ يكون دعـاؤه كالآتي: (يا ربّ، ساعدني على البقاء بعيدًا عن طريق العنف والمواجهة، على الرغم من عدائيّة الآخرين، وساعدني على مواصلة رحلة حياتي على طريق السّلام).

وهذا يدلّ على أنّـه وَفقًا لسنّة الطبيعـة، فإنّ السّلام في هـذا العالم هو القاعدة العامّة، في حيـن أنّ العنف ضرورة مؤقتة. إضافـة إلى ذلك، فإنّ هذا يخبرنا بأنّه إذا كان عدوُّنا فردًا أو جماعة، فإنّ طريقة المواجهة ليست الطريقة الوحيدة لحلّ مشكلة. والطريقة الأفضل والأكثر ملاءمة هي تحييد العداء من خلال استراتيجيّة سلميّة. إنّ قوّة السّلام أكثر فاعلية وأكثر فائدة بكثير من قوّة العنف.

الأسلوب السلميّ هو الأفضل

إنّنا نتعلم من الأثر كيف كانت سياسة النبيّ في المسائل العامّة:

«وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا». (البخاري)

إذا نظرنا إلى مبدأ اختيـار الأسهل في سياق العنف فـي مقابل الطريقة السلميّة، فسيكون من الصحيح القول: إنّ طريقة النبيّ في أيّ موقف كانت بالامتناع بمثابرة عن استخـدام الأساليب العنيفة في التعامـل معَ المسألة

المطروحة. ولهذا، فإنّ المسار السلميّ يجب أنْ يُسلك دائمًا؛ لأنه ما لا شكّ فيه أنّ أسلوب العنف يقع ضمن فئة الخيار الأصعب، في حين أنّ العكس هو الصحيح فيما يخص إلى الطريقة السلميّة.

ومعَ ذلك، فالمسألة ليست مسألة خيارات أسهـل أو أصعب، بل تعني إنّه وبتأمّلنا العام، فإنّ الأسلوب السلميّ يكون موجّهًا دائمًا من أجل تحقيق نتائجَ إيجابيّة، في حين أنّ أسلـوب العنف ليس إلا تمرينًا فـي العبثية. فالأسلوب العنيـف لا يفشل في حلّ المشكلـة فحسب، بل يزيد مـن تفاقمها وتعقيدها أيضًا. وفي الحديث، فإنّ الطريق الصعبة تعني اتّباع المسار المليء بالعقبات.

وعلى العكس من ذلـك، فالطريق الأسهل يعني التصـرّف بطريقة تُسهّل تحقيق هدفنا.

حدود الاختلاف

يقول نبيّ الإسلام ما يأتي:

(أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر). ومن ناحية أخرى، فقد ورد حديث آخرُ للنبيّ ﷺ: «من كره من أميره شيئًا فليصبر عليه». وبالمثل، في مناسبة أخرى، يقول النبيّ ﷺ: «**تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك**».

يبدو أنّ هناك نوعين مـن الوصايا في هذه الأحاديـث: فمن ناحية، فقد أمرنا أنْ نقول للحاكم بوضوح ما إذا كان يسير في الطريق غير الصحيح أم لا، في حين أنّ الحديث الآخرَ يفرض علينا البقاء صابرين من جهتنا، وأنْ نتحمّل كلّ ظلم من الحاكم.

إنّ هذه التعاليم على قدر كبير من الأهميّة، وهي تميّز بين إيصال المشورة اللفظيّة، واتخاذ خطوة عمليّة. ومن المرغوب فيه بالتأكيد أنّه إذا رأى شخص مُوالٍ حاكمَهُ قد سلك الطريق الخطأ، فإنّ عليه أنْ يلفت انتباهه إلى هذا بأسلوب ليّن فيه النصح، ولكن بقدر الاهتمام باتخاذ الخطوات العمليّة، فإنّه لابدّ له من الامتناع كليًّا عن القيام بذلك، وعليه أنْ يفرّق بين النصح الصادق وسياسات المواجهة، وأنّ عليه الإفادة من حقّه الشرعيّ بأنْ ينطق كلمات المشورة الصالحة، وأنْ يمتنع عن المواجهة السياسيّة العنيفة.

إنّ هذا المبدأ الأساسيّ مهمّ جدًّا، فجوّ العنف ينشأ في المجتمع عندما يطلق أعضاؤه حركات المواجهة ضدّ حكامهم؛ وذلك بهدف الإطاحة بهم تحت اسم الإصلاح السياسيّ. ولكن من ناحية أخرى، إذا قصروا أنفسهم عن النصيحة اللفظيّة وامتنعوا عن السياسة المثيرة للجدل فسيبقى المجتمع مسالمًا دائمًا، ولن يصبح أبدًا غابة من العنف.

فضيلة المرونة

كما ورد في الحديث، يقول نبيّ الإسلام: (كمثل خامة الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت كفأتها بالبلاء...)، وعلى هذا، فإنّ هناك طريقتين للتصرّف في أثناء وجود عاصفة؛ الطريقة الأولى بمواجهتها بكلّ صلابة، أمّا الطريقة الأخرى فهي أنْ تكون مرنًا وأنْ تنحني في مواجهتها. وهنا يمكننا أنْ نضع الأمر بطريقة مختلفة، فنقول: هناك طريقتان لمواجهة الشدائد: واحدة بالطرائق السلميّة، والأخرى من خلال العُنف. إن الله سبحانه يأمر بالتخلّي عن أسلوب العنف في صالح الطريقة السلميّة.

إنّ العنف ذو علاقة بحبّ الذات في الأساس، وهذه الأنا حينما تُستفزّ تظهر تقريبًا أنواع العنف والقلاقل جميعها؛ فعندما تتأثّر الأنا لإنسان ما، فإنّها تتحوّل إلى الأنا العظمى، والنتيجة تكون الانهيار. ومن المُسلمات أنّ أولئك الذين يعانون الأنانيّةَ اختاروا ألا يكونوا مرنين في مواجهة عواصف الحياة. وعلى العكس، فإنّ المتواضع هو من يخطو على طريق السّلام في مواجهة الشدائد. وفي عالم الله هذا فإنّ الدمار مصير أولئك الذين ينغمسون في الأنانيّة، في حين ينتظر النجاحُ أولئك الذين يديرون أنفسهم بتواضع جَمّ. وهناك حديث آخرُ يؤكّد هذه النقطة نفسها:

«من تواضع لله رفعه».

لذلك، فإنّ سرّ التعايش السلميّ هو بالمثابرة على تجنّب صدام الأنا الموجودة في الأفراد أو الجماعات. وهذه هي الصيغة الوحيدة لإقامة مجتمع سلميّ على أساس دائم.

إثبات بدهيّ

عُقدت في السادس من شباط عام 1998م ندوة دامت ثلاثة أيام في واشنطن تحت رعاية الجامعة الأمريكيّة، ألقى فيها الكاتب خطابًا عن مفهوم السّلام في الإسلام، أعيدت صياغة جزء منه فيما يتبع من هذا الكتاب.

ولا مبالغة في القول: إنّ الإسلام والعنف متناقضان بعضها مع بعض. إنّ مفهوم الإرهاب الإسلاميّ لا أساس له من الصحّة.

وحقيقة أنّ العنف غير مستدام في العالم الحاليّ تكفي لتبيّن أنّ العنف من حيثُ المبدأ غريبٌ عن خطط معالجة الأشياء في الإسلام. يدّعي الإسلام

أنّه خاتم الأديان، وعلى هذا النحو، فإنّه لا يمكـن أنْ يضع في مخططه أيّ مبدأ قد لا يكون مناسبًا في وقت قادم من الزمن. إنّ أيّ محاولة للعنف في الإسلام من شأنها إلقاء الشكّ على ديمومة الديانة الإسلاميّة.

إنّ عبارة مثل (العنـف الإسلاميّ) تحمل النوع نفسه مـن التناقض، كما في قولنا (الإرهاب السلمـيّ). والحقيقة هي أنّ تعاليـم الإسلام كلها تقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مبـدأ السّلام. ففي حين يمكن تحقيق الأهداف الإسلاميـة جميعها في جوّ سلميّ، فإنّه لا توجـد أهداف إسلاميّة يمكن تحقيقها في جوّ من العنف.

الفصل التاسع: رحلة نحو السّلام

لقد تعاملت معَ قضيـة السّلام بصورة مباشرة أو غيـر مباشرة منذ عام 1950م. وفي هذا الصدد، وعلـى الرغم من ضغوطـات الأنشطة المختلفة الأخرى فقد شاركت في عدد من مؤتمـرات السّلام، في الهند، وكذلك في الخارج، ولقد نُشرَ عدد كبير مـن كتاباتي عن هذا الموضـوع. وهنا أودّ أنْ أشير إلى ثلاثة مؤتمرات دوليّة للسلام عُقدت مؤخرًا بشأن مسألة السّلام، التي حضرْتُهـا وحاولتُ من خلالها تقديـم مساهمتي. المؤتمـرات الثلاثة جميعها عُقدت برعاية منتدى نـزع السلاح النوويّ، برئاسـة السيّد أندريه بايكوف، شارك فيها عدد من ذوي التعليم والثقافة العالية من مختلف أنحاء العالم.

وقد عُقد المؤتمر الأول في هذا الصدد من الخامس والعشرين إلى الثلاثين من تمّوز عام 2001م، في كاندرستيج، وهو منتجع مشهور في سويسرا، وكان موضوعه: (كيف نبني عالمًا خاليًّا من الأسلحة النوويّة؟)، وقد قدّمت ورقة في هذه المناسبة أعيدت صياغتها أدناهُ.

«أيها السيّدات والسادة:

إنّ موضوع هذا الاجتماع هو المسألة المعقدة لنزع السلاح النوويّ، الذي كان من المناسب والضروري في هذه المرحلة من تطوّر العالم أنْ نناقشه في محافل من مثل هذا النوع. إنّني شاكر لذلك، ولمنظمي هذا المؤتمر، لإتاحة الفرصة لي لمشاركة وجهات النظر معكم.

إن ما يهمني في المقام الأول هو الفهم الكامل لأسباب تكديس التسليح النووي. فالسبب الرئيس في رأيي هو عدم الثقة بين الناس، وكذلك بين الأمم، وقد تسبب انتشار التسلح النوويّ في تصعيد هذه الريبة، وزيادة في الأعمال الأخرى ذات الصلة. والشيء الذي عُدّ بأنّه سيكون مسؤولًا على نحو أساسيّ عن انعدام الثقة هذه هو عدم وجود الروحانيّة في العصر الحديث، لذا فإنّ علينا أنْ نعمل على إزالة هذا الأسباب السبب الجوهري، وإلا سيكون من المستحيل تقريبًا إحراز أيّ تقدّم.

هناك مقولة معروفة ليسوع المسيح؛ إذ قال: (أحببْ عدوك)، وهذا يعني أنّ على المرء أنْ يحبّ الجميع؛ وفيهم أعداؤه. وهذا هو جوهر الروحانيّة والدين: الحبّ والتعاطف معَ من حولك. وإذا كُنّا جادّين في رغبتنا في إزالة المشكلات التي تواجه البشريّة جميعها أو حلّها، ولا سيّما المسائل المتعلقة بالتسلّح النوويّ وأعمال العنف، فإنّه يجب علينا أنْ نؤكّد أكثر الأمور الرّوحانيّة، وإحياء الروح الحقيقيّة للتديُّن.

وأودّ أن أذكر مثالًا من الأثر الإسلاميّ؛ فنحن نعلم أنّ نبيّ الإسلام ولد في مكّة المكرمة، وهاجر في وقت لاحق إلى المدينة المنوّرة، وفي تلك الأيام، كان هناك بعض اليهود الذين يعيشون في المدينة المنوّرة، وذات يوم، عندما كان النبيّ جالسًا معَ رفاقه في الخارج، مرّتْ بهم جنازةٌ فقام: «فَقيلَ لَهُ يا رسول الله: إِنَّها جِنازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟» (البخاريّ)

جاء هذا مباشرة من قلب رجل روحانيّ حقًّا، رجل متديّن حقًّا يشعر بالرّحمة دائمًا معَ الرجال والنساء جميعهم، ويحبّ الجميع بالتساوي. ولكن

عندما نعاني نقصَ الروحانيّة والقيم الدينيّة، فإنّنا نميل إلى أنْ نصبح أكثر خوفًا وأقلّ ثقة بمن حولنا.

إنّنا في هذا العالم الحديث شهود على مشهد يستغلّ الناس فيه بعضُهم؛ فلقد أصبح من الأسهل استغلال الآخرين على حبّهم. وأعتقد أنّ هذا يفسّر سبب مشكلاتنا الحالية على نحوٍ ما.

وأهمّ شيء نقوم به أوّلًا قبل كلّ شيء هو أنْ نؤصّل في أنفسنا وفي الآخرين روحانيّة حقيقيّة. وهذه هي السبيل الوحيدة لإنشاء نظام عالميّ قائم على المودّة والرّحمة، الأمر الذي يؤدّي بدوره إلى إنشاء استقرار دوليّ. ومن غير مثل هذه التدابير الإيجابيّة سيكون من المستحيل حلّ مشكلات اليوم، وشكرًا».

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الدوليّ في كاندرستيج (سويسرا)، وبناءً على طلب من السيّد أندريه بايكوف، رئيس مجلس إدارة منتدى نزع السلاح النوويّ، أعددت وثيقة بشأن هذه المسألة. وقد قدّمت هذه الوثيقة في نهاية المؤتمر في الثلاثين من يوليو عام 2001م، في حفل أقيم في مدينة زوغ التاريخيّة (سويسرا)، ونُشرت لاحقًا للتوزيع العام، وقد أُعيدت صياغتها على النحو الآتي:

«إنّ السّلام أمر ضروريّ للحصول على أفضل طريقة للمعيشة، سلام العقل، والسّلام في الأسرة، والسّلام في الطبيعة. واليوم، في عالمنا التقني الحديث، يبدو أنّ الإنسان ظاهريًّا أصبحت لديه القدرة على الوصول إلى كلّ شيء يرغب فيه، ولكن في غياب السّلام، فقد غدا كلّ شيء بلا معنى. والمطلوب لمعالجة التوازن ثانية هو الحبّ، والرّحمة، والتسامح، والصبر، وروح التعايش. إنّ التعايش السلميّ هو السبيل الوحيد للوجود في هذا العالم.

كيف يمكن أنْ نحقق السّلام؟ إنّ الصيغة بسيطة جدًّا؛ خذ مالك من غير أنْ تغتصب ما للآخرين، ولبِّ حاجاتك الذاتية من غير حرمان الآخرين تلبية حاجاتهم، ثمّ لبِّ رغباتك من غير إحباط الآخريـن، وحقِّق طموحاتك من غير تجاهل الآخرين. وباختصار، حـلّ مشكلاتك من دون افتعال مشكلات للآخرين من حولك.

ومعَ ذلك، لا يمكن تحقيق حياة سلميّة إلا عندما يدرك البشر ما يجب أنْ تكون عليه حدودهم. فوَفقًا للقانون الإلهيّ، يمكنك أنْ تأخذ من هذا العالم كلّ ما ترضي به حاجتك، لا جشعك.

يمكنك القيام بأعمال تجاريّة معَ غيرك، ولكـن ليس على حساب الأسرة والمجتمع. ففي وجودك اليوميّ، قد تعيش حياتك من خلال المحافظة على البنية الاجتماعيّـة والتقاليد وليـس بالقضاء عليها. فلديـك الحريّة لإدارة حياتك الشخصية، ولكن مع تقديم الرعاية لبقيّة المجتمع وليس من خلال تجاهلهم. ويمكن استخدام الموارد لمصلحة الإنسانيّة، ولكن ليس لأغراض استغلاليّة بحتة. إنّك حرّ في استخدام وسائل سلميّـة، ولكنك لست مخوّلًا لاستخدام الأساليب العنيفـة. تستطيع استغلال الطبيعـة، ولكن من خلال المحافظة علـى توازنها؛ إذ لا يجب الإخـلال أبدًا بنظام التـوازن فيها. إنّ لديك الحريّة لتستخدم الطاقة النوويّة للأغراض السلميّة، ولكن ليس لتصنيع الأسلحة المدمّرة، ولك مُطلق الحريّة أيضًا لتغذية مشاعر المودّة والرحمة، ولكن ليـس لتفسح المجـال للكراهية والتحيّـز. إنك حرّ فـي تلبية رغباتك البدنيّة، ولكن ليس بقتل النفس روحانيًّا. وباختصار، لديك حرّية الاستمتاع بالحياة من خـلال التقاسـم معَ الآخريـن، ولكـن بالتأكيد ليـس بالقضاء عليهم.

وفي العالم الحاليّ، فإنّ السبب الجذريّ لمعظم المشكلات يمكن أنْ يعزى إلى انحرافنا عن النموذج الذي استنتجته الطبيعة، التي هي من حولنا أفضل نموذج نقتدي به، والمعضلات جميعها التي نواجهها هذه الأيام تنشأ بسبب تجاهلنا هذا النموذج.

فالنجوم والكواكب في حركة مستمرّة فـي مداراتها، لكنّها لا تتصادم معَ بعضها. وهذا مثـال لإظهار كيف أنّ الإنسان قد يمضـي في الحياة من غير صراع معَ الآخرين؛ إذ يجب عليـه أنْ يواصل رحلته إلى الأمام نحو مقصده من غير إزعاج طريق الآخرين. والشمس نموذج رائع يظهر لنا كيف يمكننا أنْ نعطي الحياة للآخرين تمامًا من غير أيّ تمييز بينهم. الشجرة هي أيضًا مثال ساطع للإنسان، فهي تزوّدنا بالأكسجين الصحيّ والمفيد مقابل حصولها على ثاني أكسيد الكربون الضارّ. وانظر كيف تنشر الأزهار عبقها في كلّ مكان من غير انتظار المقابل على فعل ذلك. والنبع المتدفق هو أيضًا مثال نموذجيّ؛ إنه يروي الحقول مـن غير توقّع أيّ شيء في المقابـل. فمن غير غرس قيم الإيثار هذه بين بني البشر، لا تمكين أن توجد حياة وذات معنى على الأرض.

وباختصار، فـإنّ الإيجابيّة تسود في أنحاء الطبيعـة جميعها، والسلبيّة لا وجود لها في العالم الطبيعيّ. وهذا يعلّمنا درسًا، هو أنّ استجابتنا يجب أنْ تظلّ إيجابيّة في الأوقات جميعها، حتى في الحالات السلبيّة.

والموعظةُ الآتية في أنْ نحـذو حذو الطبيعة هي بالضبـط ما أعرب عنه السيّد المسيح في هذه الكلمات الإلهيّة:

«أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكنْ مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض». (متى، 6:10)

أمّا المؤتمر الثاني للسلام، فكان تحت رعاية منتدى نزع السلاح النوويّ، الذي عُقِد في فندق أشداون بارك، لندن، 18-21 سبتمبر 2001م. وبوصفي مدعوًّا لهذا المؤتمر، الذي حضره مندوبون من مختلف أنحاء العالم، ألقيت خطابًا خلال المداولات. ويرد نصّ هذا الخطاب أدناهُ.

خطاب في مؤتمر لندن

إنّني شاكر لمنظمي هذا المؤتمر لإتاحة الفرصة لي لحضور هذا الاجتماع الدوليّ. لعلّي أتمكّن من مشاركة وجهات نظري معَ هذا الجمهور المثقّف. لقد بدأنا رحلتنا للسلام من سويسرا؛ حيث نجحنا في تعرّف المشكلات الأساسيّة التي يواجهها العالم هذه الأيام.

إنّ الإعلان المشترك الذي صدر في مدينة زوغ السويسرية قد دعا إلى بناء عالم أفضل، يستند إلى أساس القيم الأخلاقية والروحانيّة. ولكي يصبح هذا واقعًا؛ علينا أنْ ننشئ السّلام أوّلًا؛ لأنّه من غيـر السّلام لا يمكن لعمل بَنّاء أنْ يتمّ على نحو فاعل. ولقد أُكّد أنّ بداية عمليّة السّلام تستلزم بالضرورة القضاء على الأسلحة النوويّة، ومن غير هذا لا يمكن إحراز أيّ تقدّم.

وكان التشديد على أهميّة فكر اجتثاث العنف جانبًا واحدًا من المداولات التي جرت في سويسرا. إنّ العنف يبدأ دائمًا في العقل، لذلك علينا اقتلاعه من العقل نفسـه، وعلينا أنْ نجد عقيـدة للسلام نواجه بهـا عقيدة العنف. وخلافًا لهذا، لن تكون هناك نهاية للعنف. إنّ الأحداثَ المروعة التي حصلت في نيويورك وواشنطن في اليوم الحادي عشر من سبتمبر، عام 2001م، دليلٌ كافٍ على هذا القول.

لقد ظهر على نحو فاعل أنّه معَ نزعة العنف فـي العقل، يستطيع الإنسان شنّ حرب من غيـر أنْ يكون في حيازتـه أيّ أسلحة، فهـو يستطيع التفجير من غير قنبلة. لذلك، علينا القضاء على عقليّة العنف وغرس وسيلة سلميّة للتفكير بدلًا منها.

وفي ضوء هـذا الواقـع، وبروح مـن إعلان زوغ، فقـد أعـددت كرّاستين بعنوان: بيان رسميّ للسلام، والطريق إلى الجنّة . وهذه هي مساهمتي المتواضعة لهذه المَهَمَّة العالميّة. ويصف العمل الأول أهميّة السّلام الخارجيّ، في حين أنّ العمل الآخر يوضّح أهميّة السّـلام الداخليّ، وكلاهما ضروريّ للحصول على التنمية المتوازنة السلسة.

والآن، أودّ أنْ أبدي بعض التعليقات المختصرة بشأن الفريق الحاليّ؛ فهذه المجموعة من الأطراف المعنيّة من الناس، التي نُظِّمت تحت القيادة النشطة للسيد أندريه بايكوف، تبدو مجموعة قليلة في الوقـت الحاضر، لكنّ كونها مجموعة صغيرة أو قليلة لا يعني أنّ هذه نقطـة سلبيّة. فكما قال شوماخر، ولعله كان على حقّ: «الصغير جميل». ويقول لنا المـؤرّخ البريطانيّ، أرنولد توينبي، وبعـد دراسة طويلة مدى الحيـاة للتاريخ، إنّها كانـت تلك الأقليّات التي أثبتت أنّ الأقليّة المبدعة هي التي صنعـت الثورات الكبرى في التاريخ الإنسانيّ.

إنّني آمل بكلّ صدق أنْ يكون هـذا الفريق بقدر اختبار الإبداع، وأنْ ينجح في إحداث ثورة انتظرها العالم منذ مدّة طويلة.

في الختام، أودّ أن أقول: إنّ صيغة الثورة في منتهى البساطة:

غيّر نفسَك، وسوف تكون هذه النفس قادرة علـى تغيير العالم بأسره. وفقكم الله لتحقيق هذا الهدف النبيل.

منتدى نزع السلاح النوويّ

أشداون بارك، لندن

14 سبتمبر 2001م

المؤتمر الدوليّ الثالث، تحت رعاية منتـدى نزع السلاح النوويّ، عقد في الثاني عشر من أكتوبر عام 2002م في المدينة التاريخيّة في زوغ، سويسرا. وهذا المؤتمر الذي شاركت فيه، حضره أيضًا علماء من مختلف أنحاء العالم. وقد أعددت ورقة لتقديمها في هذه المناسبة، معربًـا عن آرائي فيما يتعلق بالسّلام العالميّ. وأعيدت كتابتها في الصفحات الآتية.

بداية عهد جديد

منتدى نزع السلاح النوويّ، سويسرا، 12 أكتوبر، 2002م

قال أحد المؤرخين، كان على حقّ: إنّ تاريخ الجنس البشريّ ليس إلا سجلًا للحروب والعنف. فبعد الحـرب العالميّة الثانية، وصل هـذا الوضع ذروته، أمّا الآن فقد شهد العالم ظهور قوّتين عظميين، وكلتاهما مسلّحتان بالآلاف والآلاف من القنابل النوويّة. ولكن سُرعان ما اكتُشِف أنّ الأسلحة النوويّة كانت عديمة الجدوى من الناحية العمليّة: فالقنابل النوويّة ليست مفيدة لا للهجوم ولا للدفاع؛ فمع أنها تستخدم في إبادة الأعداء، إلا أنها أيضًا طريق انتحار للمهاجم. وبعد أنْ اتّضح هذا الواقع للقـوى العظمى، أصبحت هذه القنابل النوويّة عائقًا بدلًا من كونها داعمًا.

وقد أدّى هـذا الإدراك إلى مفاوضـات جادّة بين القوّتيـن العظميين من أجل وضع حدّ لهذا الخطر المميت. وهنا سعت العقول كلها إلى إيجاد صيغة للتدمير الثنائيّ للأسلحة النوويّة، ولكن ثبت أنّ هذه الثنائيّة غير عمليّة.

وبفضل من الله تعالى، وبعد تأمّل طويل، وجدت الجواب عن هذا السؤال، في درس ديني عالميّ. يقوم هذا الدرس على مبدأ الأخلاق من جانب واحد، وتطبيق الأمر يتطلّب قوّة عظمى واحدة للبـدء في تدمير كومة من الأسلحة النوويّة من غير الإصرار على أنْ يتمّ ذلك على أساس ثنائيّ. ومثل هذا العمل من جانب واحد سيوجِد جوًّا قهريًّا عند الطرف الآخر، ما سيشعره بعد ذلك أنّه ليس لديه خيار سوى اتّباع النهج نفسه؛ لأنّه سيفقد مبرّر إبقاء الترسانة النوويّة لديه.

لقد أوردتُ هذا الاقتراح أوّل مرّة بشـأن اتّباع سياسة الطرف الواحد في الاجتماع الدوليّ الذي نظّمه منتدى نزع السلاح النوويّ الذي عُقِد في 26-30 من يوليو 2001م، في كاندرستيج (سويسرا).

وكانت الفكرة موضع تقدير كبير من السيّد أندريه بايكوف، رئيس المنتدى. وقد جمعتها لاحقًا على شكل كُتيّب ونشرتها. وفي الاجتماع اللاحق للمنتدى الذي عُقد فـي غابة آشداون (إنكلتـرا) في سبتمبر عـام 2001م، وُزّع هذا الكتيّب على المشاركيـن جميعهم. ومـعَ الدعم النشيط مـن السيّد أندريه بايكوف، اكتسبـت فكرة السياسـة الأحاديّة في نزع السـلاح سرعة انتشار واسعة.

وما يدعو إلى السرور والارتياح أنْ بدأت روسيا فعلًا بتدمير تسلّحها النوويّ. وعليه، أصبحت روسيا الأولى في تاريخ التسلّح النوويّ التي تبدأ نزع السلاح عن طريق التخلّص من نحو 100 كغم مـن البلوتونيوم الفائض من الأسلحة النوويّة، وما يعادل 10 قنابل نوويّة، وأسلحـة تملك قوّة تدميريّة تفوق قنابل هيروشيما بـ 100 مـرّة. لا ريب في أنّهـا خطوة حاسمة نحـو تدمير أسلحة البلوتونيوم والتخلّص منها في أنحاء العالم جميعها. وعلى الرّغم من أنّ هذه العمليّة يجري تمويلها بسخاء من الولايات المتحدة الأمريكيّة، فإنّ الفضل يعود إلى روسيا لاتّخاذها الخطوة الأولى.

اكتشف السيّد أندريـه بايكوف، وهو عالم روسيّ بـارز، صيغة لاستخراج البلوتونيوم من القنابل النوويّة ونجح في ذلك؛ ليعاد استخدامها في أغراض بنّـاءة. وبهذه الصيغة، نجـح في تحويل الأسلحـة المدمّرة إلـى آلات بناء. وقد كان هذا إنجازًا تاريخيًّا عظيمًـا؛ فهو يستحق أنْ يُنْسب إليه الفضل في

إنقاذه البشريّة من الصراعات النوويّة. وفي الوقت نفسه، فقد أثبت أنّ العقل البشريّ لديه القدرة الفريدة من نوعها لتحويل السالب إلى موجب.

يبدو الآن أنّ حلـم البشريّة سيتحقّق، حلم بعالم خـالٍ من النوويّ، سوف يتحقّق في غضون مدّة قصيرة من الزمن. فـإذا كان القرن العشرون قرنًا للحروب والعنف، فالقرن الـواحد والعشرون، ومن المؤكد كما يبدو، يمضي على أنْ يكون قرنًا للسلام والسعادة، عالـم جديد يولد. إنّ الجنس البشريّ مرّة أخرى على عتبة عهد جديد.

والآن، أودّ أن أهنـئ السيّد أندريـه بايكوف؛ لأنّه بدأ عمليّـة نزع السلاح النوويّ بنجاح، وهو إنجاز دوليّ عظيم يضاف إلى إنجازاته.

وما بعث على الارتياح الكبير أنّنا استطعنا العثـور على صيغة عمليّة جدًّا لتفادي الحرب النوويّة، التي ألقت بظلالها على الإنسانيّة مدّة طويلة.

لكن أودّ أنْ أغتنم هذه الفرصة لأشيرَ إلى أنّ هناك حقلًا آخرَ أيضًا علينا النظر إليه مع بعثـة السّلام هذه، هـو الإرهاب؛ أي العمـل المسلح من قِبل الجماعات الخاصّة والأفراد. ودعونـا لا ننسى أنّه إذا كانـت قوّة عظمى لا تستطيع تحمّل شنّ حرب لا نهاية لها، فإنّ الإرهابيون يستطيعون ذلك. وهؤلاء الإرهابيون، وهم أناسٌ من أجناس مختلفة، هدفهم النهائيّ ليس بالضرورة الانتصار، بل إنّ الموت هو هدفهـم المنشود. وَوَفقًا لفكرهـم وعلى الغرار نفسه، فإنّهم يعتقدون بأنّهم إذا ماتوا في هذا الصراع المتشدّد، فإنّهم سوف يدخلون الجنّة مباشـرة. ولذلك، وَوَفقًا لمعتقداتهم، فـإنّ النصر والهزيمة سواءٌ في نظرهم، وهم يعتقدون بأنّهم الفائزون دائمًا في قضيتهم. وبسبب هذه العقيدة الفريدة من نوعها، يتمكّن هؤلاء الإرهابيين من مواصلة النضال

لأجل غير مسمّى، وجيلًا بعد جيل، ولكنّهم ليسوا متفرّقين عن بعضهم، فهم جزء لا يتجزأ من جيلهم الكامل. وواحدة من نقاط القوّة العظيمة لديهم هي أنّ المسلحين لديهم مصنع فكريّ لغسل دماغ شبابهم. وغسل الدماغ هذا هو عمليّة مستمرّة من غير توقف، وهناك دائمًا طابور طويل من أولئك الذين يريدون أنْ يتجنّدوا للاستشهاد.

إنّ الإرهاب الحديث من ثَمّ خطر كبير ومستمرّ على عالمنا المتحضّر: فبعض قوى العالم تشارك في سحق الإرهاب عسكريًّا، ولكنّ العمل العسكريّ وحده لن يكون كافيًا للقضاء على هذه الظاهرة.

والسبب في ذلك هو أنّ الإرهاب في الوقت الحاضر هو في الواقع تشدّد تدعمه عقيدة. إذن، فالقضية ليست مجرّد سلاح آخر مقابل سلاح آخر، بل هي في الواقع قضيّة سلاح مقابل عقيدة. فالقنبلة قد تواجهها قنبلة، ولكنّ الفكر لا يواجه بقنبلة. ولأجل هذا، نحن نحتاج إلى عقيدة سلام. لذلك، علينا صياغة مثل هذا العقيدة لنستبعد مفهوم أنّ أيّ شيء قد يكون مقبولًا عن الإرهاب، وهذا يستدعي إعادة تكييف فكريّ للإرهابيين، ومعنى هذا أنّ علينا التخلّص من عقيدة الإرهاب التي تُفعّل عقول المتشددين، وتأثير هذا سيكون مثل نزع فتيل قنبلة. ومعَ هذه الغاية بالذات في ذهني، فقد نشرت ثلاثة كتب، هي: **الجهاد الحقّ، والإسلام والسّلام، وعقيدة السّلام**، التي تهدف إلى اقناع المتطرّفين من المسلمين بقبول أكثر الحلول سلامًا. وبعد تجربتنا الناجحة لنزع السلاح النوويّ، يجب علينا أنْ نتقدّم الآن لفتح جبهة لتحييد فكريّ لخطر الإرهاب، وآمل أن يكون النجاح حليفنا في تحقيق هذه المَهَمَّة الأكثر إلحاحًا.

الفصل العاشر: مركز السّلام الدوليّ

لقد أصبح إرساء السّلام أوّل أولويّاتنا، وفي الواقع، فإنّه الحاجة العظمى في نظرنا؛ فقد جعلته ظروف الوقت الحاضر عاملًا حاسمًا في بقاء الإنسان على قيد الحياة. لكنّ نشر المناشدات لدعم السّلام أو تفجير مخابئ الإرهابيين ليست الطريقة لإنشاء ذلك السّلام. والحقيقة هي أنّ الإرهاب في العصر الحاليّ يختلف عنه في المرّات السابقة؛ فالمسألة ليست مسألة من يمتلك أسلحة متطوّرة، وتقانة فتاكة، بل هي مسألة عقيدة مقابل تقانة حديثة؛ لأن الإرهاب لديه عقيدة كاملة، لتقديم الدعم للإرهاب، ولن يتوقف الإرهاب ما لم يُقض على هذه العقيدة، فهي سوف تستمرّ على نحو أو آخر.

وبسبب خطورة هذه المشكلة التي لا يمكن إنكارها، فقد أصبح من الضروريّ إنشاء مركز دوليّ للسلام في موقع تنسيق مركزي، وسيهدف هذا المركز إلى توحيد محبّي السّلام في أنحاء العالم كله، من خلال جهود أدبيّة ووسائل أخرى لتعزيز السّلام، والأهمّ من ذلك كلّه أنّه سيجلب للناس عقيدة مستدامة للسلام. وباستخدام مجموعة واسعة من الاتصالات الحديثة، فإنّها سينشر ثقافة السّلام على المستوى العالميّ، وسيُقضى على عقليّة مقاومة العنف بالعنف، وسوف تسلّط الضوء على أهميّة السّلام مقابل العنف.

سيكون مركز السّلام الدوليّ مصنعًا للسلام؛ حيث ستُصنّع (قنابل) روحانيّة، وستبقى هذه القنابل تمطر روحانيّة السّلام في أنحاء العالم جميعها من أجل إطفاء الحريق العالميّ الذي يشتعل بسبب العنف والإرهاب.

والحقيقة هي أنّه لو كان من الممكن وضع نهايـة للإرهاب الحديث بقوّة البندقية أو القنبلة، لكان هذا قد تمّ فعلًا. المشكلة الفعليّة هنا لا تكمن في كيفيّة وضع حدّ للإرهاب الحديث عن طريق الكفـاح المسلّح؛ فقد تمّ فعلًا استخدام القوّة المسلّحة على نطاق واسع، ومع ذلك، فإن خطر الإرهاب لم يُقتلع. لذلك فإن المسألة لا تتعلق بتكرار هذه الطريقة العبثية، وإنما في أنْ نغيّر استراتيجيّتنا لمكافحة الإرهاب في ضوء الخبرة السابقة.

وهذا التغيير قد يعني استخدام (القنابل) السلميّة بدلًا من القنابل العنيفة، وسوف يعمل المركـز الدوليّ للسلام حينئـذ باسم المصنـع العالميّ الذي ينتج هذه (القنابل) المسالمة والروحانيّة. وليكون فاعلًا حقًّا، لاينبغي لهذا المركز أن تكون منظمة غير سياسيّة أو عسكريّة بالكامل؛ فأيّ نوع من التدخّل السياسيّ أو العسكريّ ستكون نتائجه عكسيّة. وبذا، فإنه لا يمكن تحقيق هدف السّلام إلا من خلال الوسائل السلميّة، لا العنيفة.

لقد ظل السلام أمرًا مطلوبًا لذاته على مر العصور، وشرطًا لتحقيق التقدم البشرية، وما حدث في عصر السلاح النووي الحالي، أن السلام أصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة للإنسانية، فالسلام يعني الحياة وانعدامه يعني أن لا أمل في بقاء البشرية.

يرى الكاتب أن إرساء السلام هـو البديل للقناع النووي، مـا يفتح أبواب الحياة أمـام الفرصة الممكنة كلهـا للعمل الايجابي قد تبـدو الدعوة شبهة بإزالة سد من أمام النهر، فالحياة، مثل نهر متدفق، تظل مندفعة إلى الأمام يحركها زخم الطبيعة الإنسانية، ولا تتوقف إلا عندما تعترضها سدود الحرب والعنف المصطنعة.

وهو يؤمن أن السلام، على عكس الحرب، يوجد الظروف التي تمكننا من العمل لتحقيق الأهداف البنـاءة والسعي وراء العدالة مـن دون عوائق، كما تعتقد أن السلام هـو أكبر محفز ومثيـر لتدفق الأنشطـة البشرية المفيدة واستمراريتها.

وعليه، فإن الكاتب يهدف إلـى تقديم السلام في صـورة عقيدة كاملة - عقيدة توقظ ضمير البشر ما يعطي حلولًا لمشكلات الحياة جميعها، وتؤكد على نشر السلام وأهميته القصوى بالنسبة للفرد والعالم، ويؤكد الكاتب على فكرة أن السلام ليس مجرد خيار وإنما هو مصير.

عن المؤلف

يرأس وحيد الدين خان حاليًا المركز الإسلامي في نيودلهي، وهو مؤسسة مكرسة للتعريف بالإسلام من منظور عصري.

للمؤلف كتب عديدة منها: الجهاد الحق، إعادة اكتشاف الإسلام، والإسلام والسلام، وعدة مؤلفات من بين أكثر الكتب مبيعًا.